مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 19،العدد 74-75 (ربيع/صيف 2008)،ص 78

يوميات عبد الناصر

عن حرب فلسطين.* [مقتطفات]

بمناسبة الذكرى الستين للنكبة ننشر أدناه مقتطفات من "يوميات" عبد الناصر خلال وجوده في جبهة القتال في فلسطين خلال حرب 1948. وقد نُشرت هذه "اليوميات" أول مرة في مجلة "آخر ساعة" في ربيع سنة 1955، وأعيد نشرها في كتيب صدر عن "مؤسسة الوطن العربي للطباعة والنشر" في باريس في سنة 1978. وننشر معها مقدمة كتبها محمد حسنين هيكل يشرح فيها أهمية هذه "اليوميات" وظروف إعدادها للنشر. وفي مقدمة هيكل ما يغنينا عن شرح لماذا نرى من المفيد جداً، وفي هذا الوقت بالذات، استحضار ذكرى عبد الناصر ورؤيته للأمور، ونضيف إلى ما كتبه هيكل عن أهميتها، ما قاله وليد الخالدي في تقديمه لما نشره منها:

هي مصدر نادر لفكر الرئيس الراحل العسكري من وجهة نظر مهنية، يلامس مسائل مثل دور الاستطلاع والدعم الجوي واللوجستي. وهي تضيء عن كثب على قوة الجيش المصري عام 1948 وتنظيمه ومعنوياته وأدائه، وكذلك على البيئة الفلسطينية حيث نضجت أفكار الضباط المصريين الثورية عشية سقوط الملكية. لكن الأهم ربما، هو الطريقة التي تُبرز فيها هذه المذكرات آراء الرئيس بشأن الحرب والسلم عامة، وبشأن مسألة تقاطع المسؤولية السياسية والعسكرية خاصة. ولهذه الناحية الأخيرة أهميتها باعتبار أن المذكرات [القائمة أساساً على يوميات سجلها عبد الناصر في أثناء حرب 1948، عندما كان ضابطاً مقاتلاً في فلسطين] كُتبت مباشرة بعد الغارة الإسرائيلية الماحقة على غزة في 28 شباط/فبراير 1955 (والأرجح رداً عليها). لذا فإن ظروف نشر هذه المذكرات تجعلها مصدراً ذا أهمية خاصة (لأنها غير مباشرة) بالنسبة إلى مزاج الرئيس في الأسابيع التي سبقت أخذه القرار الخطير في طلب السلاح من موسكو، على الأقل جزئياً لمواجهة القوة التي أظهرها الإسرائيليون مؤخراً في غزة. وفي النهاية لا تخلو المذكرات من السخرية اللاذعة نظراً إلى كل ما حدث منذ ذاك، وفي إبان الوضع الراهن.

الجزء الأول
مدخل إلى مذكرات
جمال عبد الناصر في حرب فلسطين

[بقلم محمد حسنين هيكل]

كان بين أمانيّ منذ زمان طويل أن تظهر مذكرات جمال عبد الناصر عن تجربته في حرب فلسطين على شكل كتاب يأخذ مكانه كوثيقة تاريخية تنضم إلى غيرها في سجل نضالنا المعاصر – تقدم شهادة صحيحة وتعطي رؤية صادقة، خصوصاً وأن صاحبها هو أبرز وألمع شخصية في تاريخ العرب الحديث، ويكفيه أنه رجل لم يستطع الموت أن يسدل ستاراً على دوره... بل إن الرجل تحول بعد الموت إلى فكرة وإلى مبدأ وإلى قضية وإلى كفاح متجدد، وذلك معيار من أهم معايير "استحقاق البقاء" بصرف النظر عن الكفن والقبر.

ولم يكن ينتقص من أهمية مذكرات جمال عبد الناصر عن تجربته في حرب فلسطين كوثيقة تاريخية – أن الظروف لم تتح له أن يفرغ من إعدادها كلها في شكل نهائي صالح للنشر العام.

كان قد أعد بعضها في هذا الشكل النهائي، ولكن شواغله ضغطت عليه فانصرف عنها قبل أن يفرغ منها، وهكذا أصبح بعضها "شكلاً نهائياً"، وظل بعضها الآخر "مجرد مادة خام" لم تأخذ قالبها الذي تصوره لها.

وبشكل من الأشكال فإن هذه المذكرات أصبحت تذكرني بالسيمفونية الثامنة من أعمال "شوبير" وهي السيمفونية الشامخة التي اشتهرت باسم "السيمفونية التي لم تكتمل"، لأن "شوبير" أعد معظمها في قالب نهائي ثم انصرف عنها... ثم انصرف عن الدنيا كلها دون أن يعود لاستكمالها. ومع ذلك فإنها وجدت طريقها إلى الخلود وإن ظلت ناقصة، وراحت عشرات السنين تملأ أسماع الحضارة وتثير خيال كل ذي ذوق رفيع وتشده إلى تصورات

واسعة ومبدعة، وتحفزه التساؤل:

– كيف كان "شوبير" يتمثل بقية سيمفونيته... لو أن الفرصة واتته... أو واتاه الأجل.

وفي حالة جمال عبد الناصر مع مذكراته عن تجربة حرب فلسطين كما عاشها، فإن الوضع كان أفضل، ذلك لأن بقية العمل الذي لم يكتمل لم يكن محبوساً في خواطره، وإنما كان مسجلاً على ورق، وصحيح أنه كان مسجلاً على نحو بدائي، ولكنه كان مسجلاً بخطه يملأ كراستين من أولهما إلى آخرهما.

هكذا، فإن العمل الذي لم يكتمل لجمال عبد الناصر لم ينته إلى الصمت كما انتهت السيمفونية الثامنة من أعمال "شوبير" – وإنما بقي قادراً على الكلام وإن اختلفت نبرته ولهجته، فقد بقيت روايته للوقائع كما كتبها بخط يده في خنادق فلسطين وعلى تلالها وبين البيارات التي يفوح فيها عبق زهور البرتقال على الأرض المقدسة.

وقد كان من حظي أن جمال عبد الناصر أتاح لي فرصة أن أعمل معه في إعداد مذكراته عن حرب فلسطين ووضعها في شكل نهائي يجعلها صالحة للنشر العام، وكانت لذلك قصة أرويها الآن لأول مرة.

كان ذلك في ربيع سنة 1955، وفي أعقاب الغارة الإسرائيلية الشهيرة على غزة،[1] وكان جمال عبد الناصر قد ذهب لزيارة بعض وحدات القوات المسلحة المصرية، وخطب أمامها، وقال في خطابه ما معناه: "إن الجيش المصري قادر على مواجهة التحدي، والذين يتصورون أن هذا الجيش هزم في فلسطين لا يعرفون الحقيقة... فإن الجيش لم يهزم، وإنما كانت الهزيمة هزيمة الإرادة السياسية في مصر سنة 1948."

وفي مساء ذلك اليوم كنت في زيارة له، وكنا نتحدث عن خطابه وعن المعاني التي جرى حولها هذا الخطاب، وسرى بنا الحديث إلى أيام فلسطين، وهي أيام عاشها ضابطاً يقاتل، وعشتها مراسلاً حربياً يكتب من ميدان القتال.

وأتذكر أن جمال عبد الناصر قال لي ليلتها:

– هل تذكر قصة الفيلم السينمائي الذي شاهدناه منذ أيام... كذلك كانت قصة الجيش المصري في فلسطين.

وكان الفيلم السينمائي الذي شاهدناه – والذي كان يشير إليه الآن – يروي قصة رجلين، أحدهما رجل طيب شريف، والآخر مجرم مخادع. ووقعت جريمة، وكان الرجل الطيب الشريف أقرب الناس إلى مسرحها، واتهم بالجريمة، وأحاطت به الملابسات تلفه بالشكوك، وهو بريء، إلى درجة أن الرجل الطيب الشريف بدأ هو نفسه يظن بنفسه الظنون... ولكن الحقيقة انكشفت أخيراً، وظهر مرتكبها، وهو المجرم المخادع.

واستطرد جمال عبد الناصر يقول:

– كان الجيش المصري أقرب الناس إلى مسرح سنة 1948 وملابسات وقائعها.

وهكذا اتهم بما حدث فيها، ووصل به الأمر إلى حد أنه هو نفسه بدأ يشك في نفسه، لكن الحقيقة سوف تظهر.

ثم كان قوله:

– إنني أعرف... لأنني عشت التجربة.

وقلت:

– إن التجربة المكتومة ظلام... شأنها شأن الجهل تماماً.

ثم اقترحت عليه أن يكتب تجربته وينشرها على الناس.

وفكر قليلاً، ثم سألني عما إذا كنت على استعداد لأن أعاونه في إعدادها للنشر، وتحمست على أساسين:

أولهما أن تكون هناك مواد أصلية.

وثانيهما أن يكون لي حق السبق بنشر بعض فصولها في مجلة "آخر ساعة" التي كنت رئيس تحريرها في تلك الأيام.

ووافق، وبدأنا العمل معاً.

●

وكانت هناك مواد أصلية بأكثر مما قدرت، فقد دخلت عليه في اليوم الذي حددناه بعد ذلك لأول جلسة عمل، فإذا هو يقدم لي مجلدين كلاهما مكتوب بخط يده الشهير بزواياه الحادة:

المجلد الأول كراسة بحجم القطع الكبير ذات غلاف أزرق اللون، والغلاف سميك، وفي وسط الغلاف طبعت داخل مربع زخرفي عبارة "حكومة جلالة الملك"، وفي الركن العلوي الأيسر من الغلاف مربع بخطوط بسيطة طبع داخله حرف "الواو".

والكراسة في الداخل هي عبارة عن يوميات الكتيبة السادسة التي اشتركت في حرب فلسطين، والتي كان هو ضابط أركان حربها في ذلك الوقت، وكان بين مهامه أن يسجل يوماً بيوم نشاط الكتيبة ودورها القتالي.

وأمّا المجلد الثاني فقد كان دفتر يوميات عنوانه "يومية الكاتب المصري"، وهي دار نشر كانت قائمة في ذلك الوقت، وكانت تبيع مطبوعاتها في السوق، وكان شعارها رسم لتمثال الكاتب المصري الفرعوني المعروف.

وكان الشعار مطبوعاً بالضغط النافر تحت اسم "يومية الكاتب المصري" الذي كان هو الآخر مطبوعاً بنفس الطريقة.

وداخل هذا الدفتر سجل جمال عبد الناصر تجربته الشخصية خلال حرب فلسطين.

أي أن الكراسة الأولى كانت للتسجيل الرسمي.

وأمّا الدفتر الثاني فقد كان للتسجيل الشخصي، ومن الغريب أن غلاف هذا الدفتر الأخير للتسجيل الشخصي كان يحمل آثار بقعة دم.

وكانت هذه مواد أصلية ذات قيمة تاريخية لا تقدر، ولم أكن أتصور أننا في حاجة إلى أكثر من ذلك لإتمام عملنا.

●

واختار جمال عبد الناصر بنفسه أسلوب العمل.

فقد وضع أمامه دفتر يوميات الكتيبة السادسة، ودفتر يومياته الشخصية، وكلاهما مكتوب بخط يده، ثم راح يستعيد الحوادث والوقائع ويتمثلها أمامه حية نابضة.

وفي الحقيقة، فإنه كان يكسو الحوادث والوقائع بالجو الإنساني الذي دارت فيه، وبمشاعره وهو يعيش التجربة.

وكنت جالساً أمامه أسمعه وأحاول أن ألاحق بالكتابة كل كلمة تصدر عنه.

ثم كنت أعود إلى مكتبي ومعي دفتر يوميات الكتيبة السادسة ودفتر مذكراته الشخصية وكلاهما بخط يده، ومعي أيضاً ما كتبت في أوراقي نقلاً عنه وهو يتكلم – ثم كنت أحاول وضع هذا كله في شكل نهائي صالح للنشر الصحفي، وكنت أعود به إليه في اليوم التالي يراجعه ويصححه.

ونفرغ على هذا النحو من جزء، وننتقل إلى جزء يليه.

وتكررت جلساتنا لهذا العمل... وأظننا عقدنا خمس جلسات تراوح الوقت المخصص لكل واحدة منها ما بين ساعتين إلى ثلاث ساعات.

وحان موعد سفر جمال عبد الناصر إلى باندونغ في أبريل [نيسان] سنة 1955، وشغل بالسفر وبالمؤتمر، ثم شدته التطورات والحوادث إلى اهتمامات أُخرى.

وبقي العمل... لم يكتمل.

جزء منه أخذ شكله النهائي... ولكن الباقي كان "مادة خام" مسجلة، مكتوبة بخط يده، وإن لم تساعده الظروف على أن يكسوها بالجو وبالمشاعر، وهما حس ونبض التجربة.

ولعلي أقول إن القيمة التاريخية لهذا الجزء الأخير – الذي لم يكتمل في شكل نهائي للنشر الصحفي العام – أكبر وأهم – ذلك لأن هذا الجزء من المذكرات احتفظ بكل خصائص الوثيقة التاريخية بما في ذلك أصالتها الصافية، ثم تدوينها يوماً بيوم أثناء معاناة التجربة، ومن ثم فهي غير مدخولة بصنعة كلام، ثم إنها ليست تناولاً للماضي تأثر – مهما حاول أن يتجرد – بإضافات فكرية ونفسية تراكمت في الوجدان من لحظة معاناة التجربة إلى فرصة تسجيلها.

●

ومع أني أوثر أن أترك جمال عبد الناصر يروي تجربة حرب فلسطين كما عاشها دون أن أعترضها – أو أعطل عن الوصول إليها – بمقدمات وشروح – إلاّ إنني أرى بعض ذلك ضرورياً، ويشجعني عليه أنني بما أعترض به أو أشرح لا أتطفل برأي من عندي، وإنما أعود إلى جمال عبد الناصر نفسه، سواء فيما كان يقوله وقت إعداد هذه المذكرات مما لم يتسع له المجال وقت إعدادها للنشر، أو فيما كنت أسمعه منه بعد ذلك متصلاً بنقط معينة.

وعلى سبيل المثال فإن أي قارئ لمذكرات جمال عبد الناصر عن تجربته في حرب فلسطين سوف يلحظ على

الفور أن جمال عبد الناصر كان له رأي في "الحرب" بالمعنى الواسع، أي المعنى الذي لا يقتصر على حربه هو بالذات في فلسطين.

كان يرى الحرب "شراً"، وقد لا يكون من "الشر" بد في بعض الظروف.

ولم يكن واحداً من هؤلاء المحترفين الذين يرون في القتل المنظم منتهى تحقيق الذات، وهو أيضاً لم يكن واحداً من الذين لا يرون في الحرب إلاّ جانبها الحماسي، أناشيد مشبوبة بالعاطفة وأعلاماً تخفق مع الرياح وطبولاً تدق وتختلط دقاتها بزئير المدافع.

وربما ساعده على ذلك أنه عاش التجربة الإنسانية للحرب، ورأى رفاق السلاح من حوله يتساقطون، وأصيب هو نفسه في الصدر ونظر فوجد الدماء تتدفق بغزارة قرب قلبه.

لكن تجربته الإنسانية في الحرب لم تؤثر على شجاعته، فالسجلات الرسمية لحرب فلسطين تشهد له بأنه قاد معركة من أهم معارك حرب فلسطين، وهي معركة أشار إليها نائب رئيس وزراء إسرائيل اليوم وقائد الجبهة الجنوبية لإسرائيل سنة 1948، في كتابه عن الجيش الإسرائيلي، وهي معركة خسرت إسرائيل فيها أربعمئة وخمسين قتيلاً أمر جمال عبد الناصر بدفنهم على مشارف مواقع الكتيبة السادسة في عراق المنشية، ثم قام بالإرشاد عن مكان دفنهم بعد الحرب تحت رقابة ضباط الهدنة الدولية، وكانت هذه المعركة هي المناسبة التي حصل فيها جمال عبد الناصر على نجمة فؤاد الأول العسكرية، وهي أرفع وسام عسكري كان يمنح أيامها لبطولات القتال النادرة.

ومع ذلك فإننا نجد جمال عبد الناصر ينظر من حوله إلى ميدان القتال ويقول إنه لو أصبح الأمر بيده في يوم من الأيام لتردد كثيراً قبل أن يدفع شباب مصر إلى ساحات اللهب، إلاّ أن يكون ذلك ضرورياً دفاعاً عن حق أو دفاعاً عن شرف.

وربما قائل يقول اليوم:

– ولكن جمال عبد الناصر قبل مخاطر الحرب كثيراً في فترة مسؤوليته.

وذلك يبدو على السطح صحيحاً.

فقد قبل جمال عبد الناصر مخاطر القتال سنة 1956 في السويس، وسنة 1962 في اليمن، وسنة 1967، ثم كانت سنوات عمره الأخيرة حرباً كلها، وفي الحقيقة فإنه هو نفسه كان أحد شهدائها.

والمعيار الذي تقاس به تصرفات جمال عبد الناصر إلى مبادئه لا يمكن إلاّ أن يكون هذا المعيار الذي حدده، وهو:

هل كانت حروبه غير ضرورية، أم أنها جميعاً كانت حروب اضطرار دفاعاً عن حق أو دفاعاً عن شرف.

لقد حاول بكل جهده سنة 1956 أن يتجنب الحرب، ولكن الحرب فرضت عليه بالتواطؤ الثلاثي، وخاضها دفاعاً عن الحق ودفاعاً عن الشرف، وانتصر في النهاية.

ولم يكن في استطاعته سنة 1962 أن يترك ثورة اليمن الوليدة لعاصفة الرجعية العربية تهب عليها من وراء حدود اليمن وتقتلع جذورها... ولم يكن هو الذي أطال أمد الحرب بلا مبرر، فلم يكن هو الذي جاء بالسلاح الأميركي، وجند المرتزقة الأجانب، وتآمر ضد الأمة العربية مع أعدائها.

ومع أن حربه في اليمن لم تحقق انتصاراً عسكرياً حاسماً – فإنها حققت انتصاراً سياسياً وإنسانياً لا بد ينظر له على المستوى القومي، فلقد استطاع أن يكسر الأوضاع القديمة في شبه الجزيرة العربية كلها من شواطئ البحر الأحمر إلى شواطئ الخليج، وفتح أبوابها لموجة التحديث ونقلها من القرون الوسطى إلى قرب العصر الحديث، ثم إنه أكد ملكية العرب لبترول العرب، وذلك حين اضطر شركات الاحتكار الاستعماري الكبرى إلى التسليم بحق أصحاب البترول أن يكون لهم نصيب في ملكية بترولهم.

وفي سنة 1967 لم تكن أمته العربية لتسمح له أن يتقاعس عن نجدة سورية، وهو الأمر الذي عرضه ليكون الهدف الرئيسي للهجوم الاستعماري الضاري الذي أراد أن يصفي حساباته مرة واحدة وإلى الأبد مع كل من الحركة القومية العربية.

ولم يكن جمال عبد الناصر يحارب إسرائيل، وإنما اتسعت الحرب إلى أكثر من قدرة إسرائيل، لأن القيادة الحقيقية للحرب على الناحية الأُخرى كانت في الواقع لوكالة المخابرات المركزية الأميركية.

والذي يراجع تحقيقات الكونغرس الأميركي عن العمليات العسكرية لهذه الوكالة...

والذي يراجع أسرار حادث سفينة التجسس الأميركية "ليبرتي"...

والذي يراجع تفاصيل نشاط المخابرات المركزية الأميركية وعملائها وأصدقائها في المنطقة...
والذي يراجع هذا كله يستطيع أن يخرج بتصور أوسع عن حدود المؤامرة سنة 1967.

وربما قيل إن عبد الناصر وقع في فخ نصب له... وإلى حد ما فإن هذا صحيح – ولكن يبقى لصالح جمال عبد الناصر أنه لم يستسلم للفخ، وإنما احتفظ بإرادته حرة – وبشكل كامل – وواصل القتال لتحرير أجزاء من الأرض العربية وقعت تحت الاحتلال.

وفي الحرب – قديماً وحديثاً – فإن بقاء كل الإرادة أكثر أهمية من سقوط بعض الأرض إلى حين، وتاريخ الحرب العالمية الثانية – وهو قريب منا بوقائعه – يقدم لنا أكثر من درس مفيد.

سقطت أوروبا كلها تحت احتلال النازي، ورفض تشرشل أن يستسلم محتفظاً بكامل إرادته، وكان النصر النهائي له.

واجتاح هتلر نصف الاتحاد السوفياتي وراح يدق أبواب موسكو، ورفض ستالين أن يستسلم محتفظاً بكامل إرادته، وكان النصر النهائي له.

وانقضت طائرات الشمس المشرقة على الأسطول الأميركي في الباسيفيك ودمرته كله في ميناء بيرل هاربور، ورفض روزفلت أن يستسلم محتفظاً بكامل إرادته، وكان النصر النهائي له.

بل أكثر من ذلك، فإن فرنسا وقعت كلها تحت الاحتلال الألماني، وقامت فيها حكومة في فيشي وقّعت صك استسلام، ولكن فرنسا دخلت في زمرة المنتصرين لسبب واحد هو أن رجلاً واحداً – شارل ديغول – احتفظ بإرادته كاملة ورفض أن يستسلم، واستطاع أن يقنع العالم أن إرادته رمز لإرادة فرنسا المصممة على مواصلة القتال من وراء البحر.

ويلخص رأي جمال عبد الناصر بطريقة شبه كاملة في مسألة الحرب ما كان يقوله وما سمعته منه أكثر من مرة:

– الحرب ليست خياراً سهلاً، والقبول بها لا يكون إلاّ كملجأ أخير.

أي زعيم يستطيع أن يبدأ حرباً بهواه... وليس أي زعيم يستطيع إنهاء حرب وفقاً لمطالبه.

وإرادة واحدة تكفي لنشوب الحرب، ولكنها بعد أن تنشب لا تصبح تحت حكم إرادة واحدة، وإنما تتداخل في أمرها إرادات متعددة ومتداخلة.

وقرار الحرب ليس إعلاناً حماسياً، وإنما الحرب جهد وطني شامل يوضع في امتحان رهيب، ثم إنها تضحيات هائلة وآلام وعذاب تفرض على الأمة وهي تدفع ضرائبه من مستقبلها لأنها تدفعها بالدرجة الأولى من أرواح شبابها.

وحين لا يكون هناك سبيل آخر فلقد نقبل بمخاطر الحرب.

ولا ينبغي أن نقبل إذا كانت هناك أبواب مفتوحة أو حتى موارِبة لسبل أُخرى في حل الصراعات.

وفي مثال آخر، فإن أي قارئ لمذكرات جمال عبد الناصر سوف يلحظ أيضاً أن بعض مظاهر الاضطراب والقصور التي شابت – وعابت – تصرفات القيادات في حرب سنة 1948 – تكرر مثلها على نحو أو آخر في حرب سنة 1967، وكانت من بين أسباب الهزيمة.

وربما سائل يتساءل: إذا كان جمال عبد الناصر قد عاش بنفسه – وعانى – هذه الأوضاع من الاضطراب والقصور سنة 1948، فكيف سمح بتكرارها سنة 1967 وهو على قمة المسؤولية.

والتساؤل صحيح في أساسه، واعتقادي أنه أهم نقد موضوعي يمكن أن يوجه لجمال عبد الناصر، ولا يقلل من أهميته أن تساق الأسباب لتبريره.

وهناك بالتأكيد وراء هذه الأسباب حكايات طويلة.

ومجمل هذه الحكايات أن ثورة 23 يوليو [تموز] 1952 بدأت خمائرها وتحركت طلائعها من داخل القوات المسلحة، وإلى جانب ذلك فإن القوات المسلحة في دول العالم النامي – خصوصاً – هي القوة المنظمة الوحيدة القادرة على صنع أي تغيير في السلطة فضلاً عن حمايته.

وهذا الوضع أضفى حساسية خاصة على كل ما له علاقة بشؤون القوات المسلحة ودورها في إطار ثورة 23 يوليو.

ولقد أراد جمال عبد الناصر أن يبعد السياسة عن الجيش، ومن هنا جاء قراره الذي دافع عنه وأصرّ على تنفيذه بضرورة خروج العناصر التي شاركت في الإعداد للثورة أو في مغامرتها من صف القوات المسلحة – فإن هؤلاء في رأيه تسيسوا – ومع أنهم قاموا بخدمة وطنية كبرى إلاّ إن هذه الخدمة ذاتها أخرجتهم من دائرة الانضباط العسكري، وبذلك فقدوا صلاحيتهم للخدمة العسكرية. ولكي لا تتحول الخدمة الوطنية الناجحة إلى عقوبة تلحق بصاحبها، فإن هؤلاء الذين يتعين عليهم خلع زيهم الرسمي وعلامات رتبهم – لا بد أن يكون لهم مكان في الحياة المدنية يواصلون منه الخدمة المدنية... بل وحق العمل.

وكانت تلك بداية دخول أعداد كبيرة من ضباط الجيش إلى المنظمات السياسية، وإلى وزارة الخارجية، وإلى عدد من شركات الإنتاج والخدمات، إلى آخره.

ولعل الحساسية المحيطة بكل ما له علاقة بشؤون القوات المسلحة – هي التي دفعت جمال عبد الناصر إلى عدم تولي أمور الجيش بنفسه، فقد خشي أن يظن أحد أنه يفعل ذلك ليكون الجيش أداته في تثبيت مركزه أو تدعيم سلطته – وهكذا فإنه عين عبد الحكيم عامر قائداً عاماً للقوات المسلحة، وترك له سلطة واسعة في إدارة شؤون الجيش.

ومن سوء الحظ أن الحدود وقتها لم تكن واضحة، ولم تكن على هذا النحو من التحديد الذي وصلت إليه بعد التجربة الطويلة والمريرة. ومن مقتضى عدم الوضوح أن الخلط وقع بين وضع عبد الحكيم عامر على رأس القوات المسلحة كمسؤول سياسي – شأن وزير الدفاع في أي نظام – وبين وضعه كضابط سابق محترف يعتقد أن له حق القيادة الفنية – أي العسكرية – إلى جانب المسؤولية السياسية.

وتضافرت عوامل كثيرة على صنع هزات وخلق فراغات في البناء الجديد للقوات المسلحة.

ففي سنة 1955 واجهت القوات المسلحة مشكلة تغيير سلاحها من الغرب – المصدر التقليدي حتى وقتها – إلى الشرق، وهو المصدر الجديد بعد صفقة السلاح مع الاتحاد السوفياتي.

وفي سنة 1956 واجهت القوات المسلحة مهمة تفوق طاقتها مهما كان نوع تسليحها، وهي مهمة مواجهة بريطانيا وفرنسا وإسرائيل في معركة السويس.

وفي سنة 1957 واجهت القوات المسلحة قضية تطوير نظرياتها العسكرية طبقاً لأنواع السلاح التي أصبحت في يدها.

وفي سنة 1958 واجهت القوات المسلحة مشكلة الاندماج مع سورية وتغير استراتيجيات الدفاع إلى نظرية كسارة البندق، وأصبح الجيش المصري هو الجيش الثاني للجمهورية العربية المتحدة مع الجيش الأول – الجيش السوري.

وفي سنة 1959 واجهت القوات المسلحة الأوضاع المتغيرة في سورية نتيجة لانقلاب موقف عبد الكريم قاسم في العراق.

وفي سنة 1960 واجهت القوات المسلحة – في مصر وسورية – ضرورات الاستعداد لنشوب عمليات بسبب مشكلة تحويل مياه نهر الأردن.

وفي سنة 1961 واجهت القوات المسلحة مشاكل صدمة الانفصال وتأثيرها مرة أُخرى على استراتيجيات الدفاع، إلى جانب آثارها النفسية في صفوف القوات.

وفي سنة 1962 كانت القوات المسلحة في الشهور الأولى من السنة مشغولة باحتمالات تطوير حرب الصواريخ، وجاءت نهاية السنة فإذا القوات المسلحة مكلفة بمهام قتالية في اليمن.

وطالت حرب اليمن وأحاطت بها ملابسات أثّرت بغير جدال على معنويات الجيش، فإن صعوبة الحياة في اليمن استوجبت – في رأي قيادة الجيش وقتها – بعض التساهلات من منطق الاسترضاء الذي قاد إلى الاسترخاء.

وفي الحقيقة فإن جمال عبد الناصر كان يجب أن يتنبه بعد صدمة الانفصال إلى أن الأوضاع في قيادة القوات المسلحة ليست على أفضل وجه يتمناه لها... ولعله أحس بذلك في وقت من الأوقات، لكن الظروف – في أعقاب الانفصال – لم تكن أنسب الأوقات للقيام بعملية جراحية على قمة الهرم في القوات المسلحة.

●

وهكذا جاءت تجربة سنة 1967، فإذا السلبيات المتراكمة تظهر، وإذا بعض مظاهر اليوم تكرر بعض مظاهر الأمس مما حدث سنة 1948.

وفي هذه المرة أحس جمال عبد الناصر أنه لا يملك خياراً آخر إلاّ أن يتولى بنفسه شؤون القوات المسلحة، ويشرف على عملية إعادة بناء الجيش ليتولى المهمة الكبرى التي أرادته الجماهير أن يبقى في مكانه لإتمامها، وهي مهمة إزالة آثار العدوان.

وقد بدأ حركته بالفعل يوم 11 يونيو [حزيران]، فعزل كل قيادات القوات المسلحة وعين قيادات أُخرى أثبتت نفسها في تجربة القتال أيامها وراح يعمل بجهد خارق وبإصرار ليس له مثيل، وكان شعاره الذي لم يحد عنه "أنه إذا لم نتعلم من تجربتنا المريرة... إذن فنحن لا نستحق الحياة."

لم تكن به حساسية... بل ولم تشغله دعاوى الكبرياء الفارغة.

راح يلح في طلب السلاح... وفي طلب الخبراء من الاتحاد السوفياتي.

وراح يتابع برامج التدريب... والمناورات.

وراح يحضر بنفسه اجتماعات القيادة العامة، وفي أحيان كثيرة كان يعقد اجتماعات منفردة مع أعداد من الضباط الشبان يستمع إليهم ويطيل السمع.

اعتبر نفسه المسؤول السياسي الفعلي عن الجيش، وترك للقيادة العامة مهامها الفنية بعد أن حدد خطوط استراتيجيته العامة في المراحل الثلاث المشهورة، وهي: الدفاع ثم الردع ثم التحرير.

ولم تكد سنة 1967 نفسها تنتهي حتى كانت الأوضاع الدفاعية للقوات المسلحة المصرية ثابتة وصلبة.

وفي سنة 1968 بدأت معارك المدافع.

وفي سنة 1969 بدأت عمليات العبور المحدودة.

وفي سنة 1970 كانت حرب الاستنزاف على أشدها.

وفي نفس الوقت كانت الخطط قد وضعت لعمليات واسعة النطاق، أبرزها خطة جرانيت رقم (1) التي كانت تستهدف عبور قناة السويس والاندفاع إلى المضايق.

وكان شرط القيام بها هو إتمام بناء حائط الصواريخ، وتم بناء حائط الصواريخ في ظروف حرب الاستنزاف وفي ظروف وقف إطلاق النار بمقتضى مبادرة روجرز.

وكان تقدير الخبراء العسكريين أن هذا الجهد المركز الذي بذله جمال عبد الناصر وبذلته القيادة العامة للقوات المسلحة وبذلته هذه القوات على كل المستويات، وساعد عليه الشعب بصموده وبإرادته – قد حقق ضروباً من المعجزات.

وكان تقدير الماريشال زخاروف رئيس هيئة أركان حرب القوات السوفياتية المسلحة – أن الجيش المصري استطاع مضاعفة كفاءته في الفترة من يوليو [تموز] إلى ديسمبر [كانون الأول] 1967.

وكان تقدير الجنرال "لاشنكو" كبير الخبراء السوفيات أن الجيش المصري أعاد مضاعفة كفاءته سنة 1968.

ثم كرر نفس المعجزة سنة 1969.

وكذلك فعل سنة 1970.

وظل الخط البياني للتقدم يصعد حثيثاً حتى واجهت القوات المسلحة اختبارها العظيم في أكتوبر [تشرين الأول] 1973.

ويلفت النظر أن هذا الوقت تقريباً كان هو التاريخ الذي قدر جمال عبد الناصر أن تصل فيه قدرة الجيش المصري على استيعاب السلاح السوفياتي مداها. ذلك لأن تغيير العقيدة العسكرية – بما في ذلك السلاح – لأي جيش من الجيوش في العالم الثالث تقتضي فترة ما بين اثني عشر عاماً إلى خمسة عشر عاماً – وكان يعتبر أن البداية الحقيقية لدخول السلاح السوفياتي هي المرحلة التي ذهبت فيها مجموعات ضباط الجيش – التي أصبحت فيما بعد قيادات – لتلقي العلم من جديد في أكاديميات الاتحاد السوفياتي في الفترة من سنة 1957 إلى سنة 1959.

●

وفي مثال ثالث فإن أي قارئ لمذكرات جمال عبد الناصر سوف يشعر أن المقاتلين بالنسبة له لم يكونوا أعداداً

وأرقاماً أو مجرد أيدٍ تحمل قطع السلاح، وإنما كانوا بشراً من لحم ودم وآمالاً كبرى وآلاماً عظيمة.

ونجد جمال عبد الناصر يكتب بخط يده في مذكراته يوم 21 مايو [أيار] 1948 ما نصه:

"وصلتني إشارة من المتطوعين ببير سبع عن معركة مع اليهود، وقد انسحبت القوات التي هاجمها اليهود، وفي آخر الإشارة نبأ عن استشهاد أنور الصيحي الملازم أول بقوة المتطوعين... لقد تألمت جداً لهذا الخبر... كان هذا الضابط أول من استشهد من الضباط في الميدان... وكنت في ظروف اعتقاله قد لمست حالته... كان معتقلاً في حادث المؤامرة ضد عطاالله باشا... وذهبت إلى منزله لتوصيل مرتبه الذي جمعه الضباط إلى والدته... يسكن في السيدة زينب في منزل متواضع...

ويعول والدته وأخته، وكانت والدته مضطربة جداً... وكانوا في حالة يرثى لها... وقد كنت في منتهى الألم. واليوم أتخيل هذه العائلة وقد فقدت أنور في عز شبابه... الله معهم... يلهمهم الصبر... ويجعله من سكان الجنة."

●

وفي مثال رابع فإن أي قارئ لمذكرات جمال عبد الناصر في حرب فلسطين سوف يشعر على الفور أن تقدير "الشعب" لأي عمل كان هو في رأيه أقصى مكافأة يحصل عليها صاحب هذا العمل، ويظهر ذلك مما كتبه في مذكراته بخط يده في يوم الإثنين 23 أغسطس [آب] 1948، وكان كما يلي:

"علمت اليوم خبراً لم أصدقه لأول وهلة... أن أحمد عبد العزيز قتل أمس عند عودته من بيت لحم... وتفصيل الأمر أن أحمد عبد العزيز وصلاح سالم والورداني عادوا بعد مؤتمر العرب واليهود بالقدس لمقابلة المواوي... وعندما اقتربوا من عراق المنشية حوالي الساعة 20.00 (الثامنة مساء) فتحت عليهم نيران من المواقع المصرية... فكان أحمد عبد العزيز هو الضحية... ولقواتنا بعض العذر، فإن اليهود يخرقون الهدنة يومياً في هذا المكان محاولين العبور إلى المستعمرات الجنوبية..

لقد تألمت جداً، فإن أحمد عبد العزيز كان يحب أبناءه، وكان في عز مجده الذي لم يجازَ عليه، ولم يره الشعب ولم يستقبله... مات أحمد عبد العزيز وكله أمل في الحياة... لقد تألمت جداً لهذه الآمال التي انهارت... كان آخر ما قاله لصلاح سالم..."

ولم يكمل جمال عبد الناصر مذكراته ذلك اليوم لسبب من الأسباب وبقيت الجملة معلقة لم تصل إلى خاتمة منطقية.

●

وهل أستطرد بعد ذلك إلى مثال خامس وسادس وسابع مما يستطيع أي قارئ لمذكرات جمال عبد الناصر في حرب فلسطين أن يلمحه ويشعر به ويتفاعل معه.

هل أستطرد مع الأمثلة.

أم أتوقف... وأترك المذكرات تروي قصتها، على أن أعود إليها بعد ذلك لبحث قصتين بالتحديد:

أولاهما قضية تجربة فلسطين ودورها في تشكيل الرؤية القومية لدى جمال عبد الناصر.

والثانية قضية الصراع العربي – الإسرائيلي ورأي جمال عبد الناصر في حله النهائي.

أتوقف عن الحديث الآن إذن...

وتتقدم مذكرات جمال عبد الناصر عن حرب فلسطين تقص أخبارها وتفضي بأفكارها وتبوح بمشاعرها وخفقات قلبها الذي كاد الرصاص أن ينفذ إليه ذات يوم على ثرى الأرض المقدسة...

الجزء الثاني
هكذا أعد جمال عبد الناصر مذكراته للنشر

– 1 –

كنا في شهر أبريل [نيسان] سنة 1948[2]...

وكان تنظيم الضباط الأحرار[3] قابعاً منكمشاً على نفسه، فقد كانت الرقابة شديدة تتحسس آثارنا من كل اتجاه.

كانت هناك محاولة في الجيش لم يكتب لها النجاح.

وكانت عيون البوليس السياسي متجهة إلى الجيش.

كان الوقت بالنسبة لنا غير صالح للحركة على الإطلاق.

وكانت اجتماعاتنا قليلة، فلم نكن نريد أن نلفت إلينا أنظار أحد.

وكنت منهمكاً في الاستعداد لانتهاء الدراسة في كلية أركان الحرب.

ولكن هموم الدراسة ومشاغلها لم تستطع في ذلك اليوم أن تصد عن أذني طبول المعركة التي كانت تدق في فلسطين.

وكانت الحماسة بالغة وروح القتال على أشدها، خصوصاً بين زملائنا من الضباط الشبان، وكان كثيرون من إخواننا في تنظيم الضباط الأحرار يتسللون خفية من عيون الرقابة ليهمس الواحد منهم في أذني بأنه يريد أن يتطوع للقتال في فلسطين.

وكنت في حيرة مع نفسي.

كانت هناك عوامل كثيرة تتنازع تفكيري.

هل أتطوع أنا الآخر، أخلي ملابسي الرسمية، وأحمل مدفعاً صغيراً في يدي وأمضي إلى المعركة... أم أنتظر انتهاء الدراسة في كلية أركان الحرب، وقد قضيت أكثر من عام أستعد له، ولم يبق عليه إلا شهر واحد.

واجتمع فريق من أعضاء اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار في ذلك الوقت في بيتي، واستقر الرأي على أن يسافر بعضنا إلى فلسطين متطوعاً،[4] ويبقى البعض الآخر في القاهرة.

وذات صباح وجدت نفسي في محطة القاهرة، مع عبد الحكيم عامر،[5] وزكريا محيي الدين،[6] نودع صديقنا وزميلنا في اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار: كمال الدين حسين،[7] وكان في طريقه إلى فلسطين مع غيره من الأصدقاء والزملاء.

كنا نهنئهم على الفرصة المتاحة لهم، وكنا نواعدهم على اللقاء بعد يوم غير بعيد في الأرض المقدسة التي سبقونا إليها. وكنا نؤكد لهم في حماسة ملتهبة أننا سنحاول من القاهرة أن نبذل جهدنا لإنجاح معركتهم.

وكان آخر ما قلته لكمال الدين حسين قبل أن يتحرك القطار: إذا احتجت شيئاً فابعث إليّ، سوف ألاحق أي طلبات لكم في الجيش، ولن نترك الروتين العادي والتواكل والتهاون يعوق طريقكم.

وتحرك القطار وقلوبنا تهتز من فرط الانفعال.

ولم أعد يومها إلى بيتي، وإنما طرقت باب إحدى الصحف اليومية، وطلبت من رئيس تحريرها أن يسمح لي بأن أكتب له وصف سفر القطار المتجه إلى فلسطين. وجلست، وقلبي ما زال يهتز من فرط الانفعال، وكتبت ما حدث في محطة القاهرة، وظللت ساهراً في دار الصحيفة أنتظر أن تدور عجلات المطبعة بما كتبت.

وبدأت أيام شهر مايو [أيار] ونحن لا نزال في القاهرة، وأعصابنا تحيا في فلسطين.

كنا نعيش في دوامة من الأفكار والمشاعر.

وذات يوم قيل لنا إن دفعتنا من كلية أركان الحرب سوف تتخرج قبل الوقت المحدد، فإن احتمالات فلسطين قد تقضي بهذا.

وكان احتفال التخرج بسيطاً، هرعنا بعده لنعرف إلى أين ينتهي بنا المطاف، وصدرت إليّ الأوامر بأن ألتحق بالكتيبة السادسة.

وصدرت إلى عبد الحكيم عامر لكي يلتحق بالكتيبة التاسعة.

وصدرت إلى زكريا محيي الدين لكي يلتحق بالكتيبة الأولى.[8]

وكانت الكتائب الثلاث يومها على الحدود، ولم يكن هناك من يعرف على وجه اليقين ما الذي ستأتي به الأيام المقبلة.

وكنا نحن الثلاثة – على أي حال – نتعجل الزمان لكي نستطيع أن نلحق بكتائبنا على الحدود.

وكانت الأوامر الصادرة لنا أن نغادر القاهرة يوم 16 مايو [أيار].[9]

ولكن حماستنا لم تكن تطيق الانتظار، فقد كانت الصحف تطالعنا كل صباح بفيض من الأنباء عما يجري في فلسطين، وفي نفس الوقت كانت هناك تخمينات كثيرة وظنون متضاربة عن الموقف الرسمي الذي قد تتخذه الحكومة المصرية في ذلك الوقت.

توضع هنا الخريطة رقم 1

ولم يبدُ من سياق ما كنا نقرأه في الصحف شيء واضح على وجه التحديد، ولكن احتمال دخول حرب في فلسطين كان قد بدأ يظهر، وكان الشعور في كل مكان حولنا فياضاً دافقاً.[10]

وغادرت بيتي صباح 16 مايو [أيار] أحمل حقيبة الميدان بعد أن تركت على إحدى الموائد صحيفة الصباح، وكانت صفحتها الأولى مليئة بالبلاغ الرسمي الأول الذي صدر عن وزارة الدفاع في ذلك الوقت، يروي للناس بداية العمليات الحربية في فلسطين.

وتملكني شعور غريب وأنا أقفز درجات السلم.

"وإذن فأنا في الطريق إلى ميدان القتال."

واتجهت بي السيارة إلى بيت عبد الحكيم عامر، فقد كان مقرراً أن أمر عليه وعلى زكريا محيي الدين لكي نسافر معاً. وتركت فكرة ميدان القتال تستولي على أفكاري كلها، فقد كنت أريد أن أتجه إلى الذي ينتظرني، وأنسى تماماً كل ما تركته وراء ظهري، وأنسى بينه عاصفة من الدموع رأيتها تتجمع قبل أن أخرج من بيتي وتنتظر أن أبدأ هبوط السلم لكي يبدأ تساقطها.

وكان القطار الذي غادر القاهرة متجهاً إلى الحدود، حيث جبهة القتال – نموذجاً رائعاً لأمثاله أيام الحروب.

الضباط والجنود في كل ركن منه.

ربطات الميدان تسد الممرات.

قطع السلاح والخوذات المتناثرة تضفي على الجو لمسة أخيرة معبرة.

وكانت الحماسة تطبع كل حركة وكل كلمة وكل نظرة عين.

وكانت هناك أحاديث عن المجهول الذي ينتظرنا والذي كنا نريد أن نقذف أرواحنا وأجسادنا في أقداره المخبوءة.

وكانت هناك، في بعض الأحيان، أحاديث عن الزملاء الذين سبقونا إلى الميدان والذين تركناهم وراءنا في العاصمة.

ولم يكد القطار يتحرك في اتجاه ميدان القتال حتى أصبح الركن الذي جلسنا فيه – عبد الحكيم وزكريا وأنا – أشبه ما يكون بغرفة عمليات حربية.

وفتحنا خريطة كبيرة بيننا، وبدأنا نناقش الموقف.

وبدت أمامنا للوهلة الأولى فجوات كان يمكن أن يتسرب منها إلى خطوطنا خطر.

كان الجيش المصري يومها مكوناً من تسع كتائب،[11] ولكن ثلاثاً منها فقط كانت قرب الحدود حينما صدر الأمر بدخول فلسطين، وكانت هناك رابعة في الطريق.[12]

وكنا نتساءل والقطار يندفع بنا إلى ميدان القتال:

– "لماذا لم يحشد عدد كبير من الكتائب ما دمنا نريد دخول حرب فلسطين."

"ولماذا لم يستدعَ الاحتياطي[13] لكي تكون منه كتائب جديدة ترسل إلى الميدان على عجل."

ثم "لماذا يصف البلاغ الرسمي الأول عمليات فلسطين بأنها مجرد حملة لتأديب العصابات الصهيونية."

وعلى أي حال فإن الحماسة لم تلبث أن ملأت الفجوات جميعاً وسدت ما بينها.

ولكن الإحساس بالفجوات المنذرة بالخطر لم يلبث أن عاد إلينا عندما وصل القطار بنا إلى العريش.

كان المظهر الخارجي للبلدة الغارقة في ظلام الليل الحالك يتلاقى في خيالنا مع الهيبة التي كنا نتصورها للقاعدة الخلفية لميدان العمليات.

ولكن المتناقضات كانت تصدمنا كلما تعمقنا داخل المظهر الخارجي إلى صميم العمل الحربي الذي كان يجب أن تقوم به القاعدة.

لم يكن هناك من يهتم بنا أو يرشدنا إلى ما يتعين علينا أن نصنعه.

ولم نكن ندري أين مواقع وحداتنا بالضبط حتى نستطيع أن نلحق بها ولم نجد أحداً يستطيع أن يرشدنا إلى هذه المواقع.

وذهبنا إلى رئاسة المنطقة ونحن نتصورها خلية نحل تئز بالحركة الدائبة، ولكن رئاسة المنطقة لم يكن بها

أحد كأنما هي بيت مهجور، في بقعة من الأرض، لا يسكنها بشر.

وحين عثرنا على أركان حرب المنطقة، كان الشاب يبحث عن عشاء لنفسه.

واستضفناه على ما كان معنا من بقايا طعام، وكانت أصوات ضحكاتنا وأحاديثنا تجلجل في البيت المهجور، وكانت لأصدائها في نفسي مشاعر غريبة.

وجاءتنا الأخبار بعد العشاء بمواقع كتائبنا على وجه التخمين.

كانت الكتيبة التاسعة في غزة، وكذلك الكتيبة الأولى.

أمّا الكتيبة السادسة التي كنت سأعمل أركان حرب لها فقد كانت لا تزال في رفح، وإن كانت قد تحركت منها إلى عملية ضد مستعمرة الدنجور[14] ثم عادت إليها مرة أُخرى.

وافترقنا.

ركب عبد الحكيم وزكريا سيارة جيب إلى غزة.

وركبت أنا سيارة أُخرى إلى مواقع كتيبتي في رفح.

كان الجو في الكتيبة السادسة حين وصلت إليها في حال عجيب.

كانت الكتيبة قد فرغت لتوها من عملية ضد مستعمرة الدنجور عادت بعدها إلى مراكزها في رفح، ولقد تركت الكتيبة وراءها على أرض المعركة حول الدنجور بعض الضحايا، ولكني أحسست أنه كان بين الضحايا الذين تركتهم الكتيبة عند الدنجور إيمانها بالحرب التي تخوض غمارها.

وبدأت أسمع التفاصيل.

صدرت الأوامر من القاهرة بأن تتحرك الكتيبة إلى الدنجور في ليلة 15 مايو [أيار].

ولم يكن هناك وقت لكي تستكشف الكتيبة غرضها الذي سوف تهاجمه، وكذلك لم تكن هناك معلومات قدمت لها عنه.

وكان هناك دليل عربي واحد أنيطت به مهمة قيادة الكتيبة إلى موقع مستعمرة الدنجور، ولم يكن هذا الدليل يعلم شيئاً عن تحصيناتها ودفاعها، وكل الذي قام به هو أنه ظل يرشد الكتيبة إلى الطريق ويدلي لها بمعلومات غير واضحة ولا دقيقة، حتى ظهرت أمامها فجأة تحصينات الدنجور.

ولم يسترح الجنود بعد الرحلة الشاقة، وإنما اندفعوا إلى الأسلاك.

ولم يكن هناك من يعرف ما الذي يجب عمله على وجه التحديد.

ولكن المدافعين عن الدنجور كانوا يعرفون. وأصيبت الكتيبة بخسائر لم تكن متوقعة، وعند الظهر أصدر القائد أمره بالابتعاد عنها، وعادت الكتيبة إلى رفح لتجد بلاغاً رسمياً أذيع في القاهرة يقول: إنها أتمت عملية تطهير الدنجور بنجاح.

ولاحظت بين الذي سمعته من تفاصيل ظاهرتين هامتين:

الأولى أن هناك نغمة بين الضباط تقول إن الحرب حرب سياسية. وكان لهذه النغمة ما يؤيدها ويتناسق معها من كل ما رأوا حولهم.

لم يكن معقولاً أن تكون هذه حرباً. لا قوات تحتشد، لا استعدادات في الأسلحة والذخائر، لا خطط، لا استكشافات ولا معلومات.

ومع ذلك فهم هنا في ميدان القتال.

إذن فهي حرب سياسية.

هي إذن حرب ولا حرب. تقدم بلا نصر، ورجوع بلا هزيمة، هي حرب سياسية فقط...

والنغمة الثانية أن أساطير من المبالغات كانت تؤلف حول قوة العدو العسكرية.

لقد فوجئت القوات بمقاومة مستعمرة الدنجور، ولم تكن تعرف عنها شيئاً.

وسمعت واحداً من زملائنا يروي كيف أن أبراجاً تعمل بالكهرباء كانت تطلع إلى سطح الأرض وتطلق النار في كل اتجاه، ثم تهبط تحت الأرض، بالكهرباء أيضاً.

ولم أكن مشتركاً في هذا الحديث، ولكني لم أستطع السكوت، والتفت إلى زميلنا أسأله:

– كيف عرفت أنها تعمل بالكهرباء، إنك لا تستطيع أن تقطع بهذا إلاّ إذا كنت دخلت المستعمرة وفحصت قواعد هذه الأبراج... فهل فعلت هذا.

وسكت زميلنا، ولكن أساطير الأبراج المتحركة بالكهرباء، الضاربة في كل اتجاه، لم تسكت.

ولم يكن اللوم في رأيي موجهاً إلى هؤلاء الشبان، وإنما كان المسؤول عنه نقص المعلومات عن العدو نقصاً قاتلاً مدمراً.

وبدأت بعدها كأركان حرب للكتيبة السادسة أشعر بالحيرة والضجر – اللذين كانا يحكمان قيادتنا العليا. وكانت مئات العوامل تتنازعني، ولم أكن أعرف الوسيلة التي أعبر بها عما أحس.

وأعترف أني سمعت من أحد الجنود تعبيراً واضحاً عن حالتنا... قاله الجندي بلغته الساذجة الدارجة ولم يكن يعرف أنني أسمعه، ولا كان يعرف أن عبارته الساذجة الدارجة كانت وصفاً صادقاً لما كنا فيه.

جاءت الأوامر إلى الكتيبة بأن تهد معسكرها الذي تقيم فيه وتنتقل إلى مكان آخر يبعد عنه بثلاثة كيلومترات.

ولم أستطع أن أتصور الغرض من هذا التحرك، ولكن الكارثة الكبرى أن الذين أصدروا أمرهم به لم يكونوا يعرفون له غرضاً هم الآخرون.

وكان الدليل أنه بعد ثلاث ساعات من هذا الأمر، وبينما نحن نقيم المعسكر الجديد، جاءتنا أوامر جديدة بالتحرك إلى المحطة وركوب القطار المتجه إلى غزة.

وبدأنا نهد الخيام التي لم نكد نفرغ من إقامتها. وجاء أحد الجاويشية إلى جندي كان منهمكاً في إقامة إحدى الخيام وقال له:

– يا عسكري هدّ الخيمة.

ونظر الجندي في دهشة إلى الجاويش، ولما علم أن أوامر جديدة بالتحرك لركوب القطار قد صدرت بدأ يعد الخيمة التي هدها في الصباح من مكانها وبدأ عند الظهر يقيمها في مكان جديد، ثم أمر بهدها مرة أُخرى قبل أن يفرغ من إقامتها...

وسمعت الجندي بأذني يقول: "يا خيبتنا... يا خيبتنا" يقولها منغمة ممدودة... بلهجة ريفية ساخرة. وأحسست أن الشكوك التي كانت تساورني حول عجز قيادتنا وترددها قد وصلت إلى الجنود... وأن هذا هو التعبير البسيط الساذج عنها.

وركبنا القطار إلى غزة وفي قلبي هموم، وعلى أي حال فقد كان يخفف من همومي أني كنت أعلم أني سوف ألتقي بعبد الحكيم عامر في غزة، وأني سأتسلم منه مواقعها، فقد كان عليه كأركان حرب للكتيبة التاسعة التي تتولى العمل فيها أن يسلمني كأركان حرب للكتيبة السادسة المواقع التي سنحل فيها مكانهم.

وكان بيني وبين عبد الحكيم عامر حديث طويل في غزة ونحن نطوف بالمواقع التي كان عليه أن يسلمها لي.

كانت مواقع الكتائب الأربع في فلسطين يومها كما يلي:

الكتيبة السادسة متحركة من رفح إلى غزة.

الكتيبة التاسعة تستعد لمغادرة غزة بعد وصول كتيبتنا إليها.

الكتيبتان الأولى والثانية متحركتان إلى الأمام في اتجاه المجدل على الطريق الساحلي.

وأذكر أنني صارحت عبد الحكيم عامر بهواجسي. فقد كنت أحس أن هناك عملية بعثرة لقواتنا، فنحن نتقدم على السهل الساحلي ونترك المستعمرات المحصنة وراء ظهرنا تهدد جناحنا الشرقي وخطوط مواصلاتنا.

وتركني عبد الحكيم عامر مع كتيبته المتقدمة إلى الأمام، والتي كان عليها واجب في معركة دير سنيد[15]، بعد أن سلمني ألف جنيه كانت في عهدته، وكان علي أن أشتري بهذه الألف كل ما أستطيع شراءه من جبن وزيتون.

لم يكن لدى الجنود المتقدمين تعيينات طوارئ يعتمدون عليها في المراكز الأمامية حيث لا تستطيع الوجبات الساخنة أن تصل إليهم.

ولم يكلف أحد خاطره أن يفكر في أمر وجبات الطوارئ اللازمة للجنود المحاربين. وكل الذي فعلوه أنهم بعثوا إلينا بألف جنيه وقالوا لنا: "اشتروا جبنة وزيتون".

واشتريت كل ما كان في غزة من الجبن والزيتون، وقلبي مجروح على الجندي الذي يهاجم المواقع الحصينة بجسده العاري ثم يجلس وقت الأكل في جحر كجحور الفيران يقرض قطعة من الجبن، اشترينا كل ما عثرنا عليه منه في غزة بألف جنيه ألقوها إلينا وقالوا لنا: تصرفوا..

وكان قلبي المجروح يهتف بي في كل دقة من دقاته: "ليست هذه حرباً".

وبدأت وأنا في مكاني في غزة ألاحق تطورات معركة دير سنيد التي كانت قد بدأت.. ألاحقها دقيقة بدقيقة.

كنت أسمع دوي المدافع عن بعد. وكان الجرحى من رجالنا يصلون أفواجاً بعد أفواج إلى مستشفى غزة.

وكانت ليلة 20 مايو [أيار] من أتعس ليالي حياتي، قضيتها في مستشفى غزة العسكري، والأَسرّة حولي كلها

مليئة بجرحى معركة دير سنيد التي لا تزال مستمرة.

كل هذا وراديو القاهرة يذيع بلاغاً أصدرته القيادة العامة تقول فيه: "إن قواتنا احتلت مستعمرة دير سنيد واقتحمتها اقتحاماً رائعاً بالمشاة."

وكانت هذه كذبة مؤلمة، فإن المستعمرة لم تكن قد احتلت بعد، وإن كان الشيء الصحيح في البلاغ الرسمي هو أن المشاة كانت تقوم بعملية اقتحام رائعة.

وكانت في أعماقي ثورة على الذي كان يحدث أمام دير سنيد وتصل إليّ أخباره..

أي معركة هذه.. هذه التي يستهلك فيها جنود المشاة بهذه الطريقة المروعة.. في هجمات نهارية مكشوفة، وأجساد عارية لا تحميها قوات مدرعة أمام تحصينات قوية، ومدافع ماكينة متحفزة في أيدٍ مدربة. صحيح أن موجات مشاتنا لم تتوقف، كانت موجة منهم تسقط أمام النار فتجيء موجة بعدها غير هيابة ولا خائفة.. ولكن هل كنا نسوق جنودنا إلى معركة، أم كنا ندفع بهم في غير رحمة إلى مجزرة.

كان الموقف في الميدان كله يظهر واضحاً لعيني وأنا في مكاني في غزة.

لقد انتهت معركة دير سنيد بعد تضحيات غالية بالنصر برغم كل المصاعب التي كانت تحيط بقواتنا.

وبعد المعركة صدرت الأوامر إلى الكتيبة الأولى بالتقدم إلى المجدل.

وتقدمت الكتيبة التاسعة إلى أسدود،[16] ثم صدرت أوامر جديدة إلى الكتيبة الأولى بالاتجاه شرقاً واحتلال عراق سويدان.. والفالوجة... وبيت جبرين.[17]

وكنت أكاد أفقد اتزاني وأنا أتابع هذه التطورات التي كانت تنشرها صحف القاهرة قبل أن تتحرك قواتنا طبقاً لها في الميدان.

ولم أكن أستطيع أن أدرك الهدف من هذه الأعمال جميعاً. لقد كان همّ قيادتنا أن تحتل أكبر مساحة من الأرض. وكانت النتيجة أن الكتائب الأربع توزعت على خطوط طويلة، وأصبحت قواتنا المبعثرة لا همّ لها إلاّ حماية نفسها ومواصلاتها.

ولم يعد هناك تحت تصرف القيادة احتياطي متحرك تستطيع أن توجهه إلى ضرب العدو، وأصبح قائد الجيش المحارب.. قائداً بلا جنود، أو هو في الكثير يحكم مجموعة من نقط الحراسة المبعثرة على جبهة واسعة.

وكنت أرى بوضوح أننا فقدنا تماماً القدرة على المبادأة، وأسلمناها للعدو طائعين مختارين.

وكان هذا الذي كنت أراه في مكاني في غزة، واضحاً أمام الضباط والجنود في الخنادق، وكان له أثره المدمر على الروح المعنوية.. كان كل جندي يشعر بالنقص في السلاح، وأكثر منه يشعر بالنقص في الخطط.

وأحس كل واحد أن القائد العام في الميدان لا يملك من أمر قواته شيئاً، وأنه لا يتصرف طبقاً لاحتياجات الميدان، وإنما هو يتصرف تحت تأثير عوامل أُخرى أبعدها عن حسابه ظروف الميدان.

وكان شعور الجنود والضباط بأنهم تحت رحمة العدو، وهم هناك في مراكزهم المعزولة المتناثرة، يجعلهم يشعرون بأنهم هدف منعزل محدد ثابت، أمام عدو قادر على الحركة السريعة..

وعاد الكلام في الخنادق مرة ثانية عن الحرب السياسية. وكانت كارثة "الحرب السياسية" أبغض شيء إلى تفكيري في تلك الظروف، فقد كنت أعرف من عبر التاريخ أنه ما من جيش دخل حرباً سياسية إلاّ وهزم فيها، وكانت آخر الأمثال في ذاكرتي هزيمة "ويفل" في معركة اليونان.

توضع هنا الخريطة رقم 2

إن الحرب يجب أن تكون حرباً. والقائد في الميدان يجب أن يتصرف طبقاً لظروف الميدان.

ولكننا كنا في حرب ولا حرب. وكان لنا قائد ولكن ليس له جنود لأنه بعثرهم على جبهة واسعة بحيث أصبحوا قوات حراسة تكاد مع التفاؤل الشديد تكفي لحماية نفسها فقط.

ووصلت كتيبة جديدة إلى الميدان.. وهي الكتيبة السابعة[18].. وصدرت إليّ الأوامر بأن أسلمها قطاع غزة، لأن كتيبتنا كان عليها أن تتقدم إلى الأمام وتحتل مراكز أسدود. وكنت أشد الناس سعادة بهذه الأوامر. كنا – أخيراً – سنلتقي بالعدو، ونخوض معركة ضده. وكنت – مرة أُخرى – سألتقي بعبد الحكيم عامر، فقد كان هو أركان حرب الكتيبة التاسعة المحاربة في أسدود، وكنت كأركان حرب للكتيبة السادسة سأتسلم منه – مرة أُخرى – المواقع التي

تحتلها كتيبته.

وقبل أن نتحرك من غزة جاءتنا أوامر غبية. جاءتنا إشارة استعداد بأن نجهز أنفسنا لنجدة الجيش الأردني الذي كان مشتبكاً في معركة الواد.

ولم تكن لدينا أي معلومات عن معركة باب الواد[19].. وكان مدهشاً في رأيي أن تكون لنا أربع كتائب في فلسطين، ثم نتخلى عن واحدة منها – ربع الجيش المحارب تماماً – ونبعث بها إلى حيث لا ندري في باب الواد.

ولكن الأوامر من حسن الحظ ألغيت. وكنا على استعداد للتحرك، ومضينا إلى حيث كان علينا أن نمضي أولاً... إلى أسدود... إلى حيث سنلتقي أخيراً بالعدو وجهاً لوجه.

والتقيت بعبد الحكيم في أسدود. كان كما تركته لآخر مرة، ابتسامته التي تبعث على الثقة، وروحه الطليقة، وقضينا معاً ليلة لا أنساها.

كان فراشه في حفرة في حديقة برتقال، ووضعت فراشي في نفس الحفرة على الناحية الأُخرى من شجرة البرتقال.

ولم ننم طوال الليل. كان الجو غريباً مثيراً. كنا في أقصى المواقع الأمامية قرب العدو، وكان جهاز اللاسلكي بجوار عبد الحكيم ينقل إليه التطورات دقيقة بدقيقة.

وعلمت من عبد الحكيم لأول مرة أن هجوماً سيقع في الغد على مستعمرة نيتساليم،[20] وأبديت لعبد الحكيم قلقي من أن يتكرر أمام نيتساليم ما حدث من قبل في دير سنيد.

وبدأ عبد الحكيم يهدئ قلقي. قال لي إنه تعلم دروساً عن دير سنيد. وقال لي إن روح الضباط الشبان عالية لدرجة أنه أجرى قرعة بين السرايا لكي يحدد أيها يقع عليها مهمة قيادة الهجوم، ولكن قائد إحدى السرايا تطوع ورفض إجراء القرعة، وكان هو اليوزباشي محمود خليف وكان أحد أفراد تنظيم الضباط الأحرار.

وتركني عبد الحكيم عند الفجر ومضى إلى المعركة. وقضيت يوماً مشحوناً.

كان عليّ أن أرتب مواقع كتيبتنا في مواقعها الجديدة. وكنت مشغولاً في الوقت نفسه بالذي يجري أمامنا إلى الغرب على الساحل في نيتساليم، وكنت أتسقط أخبار المعركة.

وعند العصر جاءتنا الأخبار بأن الكتيبة التاسعة نجحت في عملها، وأنها استولت على مستعمرة نيتساليم.

وعلمت أن خليف قائد السرية المتقدمة قد استشهد. وعلمت أن عبد الحكيم عامر لم يطاوعه قلبه، فمضى مع السرية المتقدمة، وأن شظية أصابته، ولكنه سليم بخير.

وكانت تلك هي المعركة التي رقي فيها عبد الحكيم ترقية استثنائية في الميدان.

وقضينا الليلة والعدو يطلق علينا النار ونحن نبادله نيراناً بنيران. ولكن خواطري لم تكن معي. كانت تحلق فوق أرض الميدان كله. كنت أقول لنفسي:

– ها نحن قد نجحنا في معركة نيتساليم. إن روح الشجاعة لا تنقص ضباطنا وجنودنا إذن. ولكن ذلك كان العامل المشجع الوحيد، وفيما عداه كان الموقف كله يبعث على القلق. كنت بخيالي أطوف الميدان كله فأجد قواتنا المبعثرة يقل تركيزها كلما اقتربت من الخط الأول لملاقاة العدو. كانت منتشرة على مساحات واسعة من الأرض على عددها القليل، وكانت كما قلت قد تحولت إلى نقط حراسة عليها أن تحمي نفسها. ولم يكن هناك فائض قوات يمكن استخدامه في هجوم.

لم نكن نحارب كجيش، وإنما تحولنا بعد دخول فلسطين إلى جماعات متفرقة على مراكز واسعة الانتشار، وكانت النتيجة أن العدو نجح في تثبيتنا فيها، واحتكر لنفسه حق الحركة وحشد القوات والهجوم علينا من حيث يريد.

وكنت أسأل نفسي وألح في سؤالها:

– لماذا فعل قائدنا ذلك... لماذا شتت قواته وبعثرها بهذه الطريقة.

– لماذا سمح لنفسه أن يندفع في خط طويل مكشوف من كل ناحية أمام العدو.

– 2 –

وبدأت أخبار الهدنة[21] تصل إلينا في الخنادق. وجاءتنا الأوامر بوقف القتال في السادسة صباحاً من يوم الجمعة. وعاد الكلام مرة أُخرى عن الحرب السياسية. ولكن العدو لم يأخذها حرباً سياسية. فقبل حلول موعد وقف

القتال بساعات، تلقيت الأخبار بأن قوات منه قطعت الطريق بين المجدل وأسدود. واستطعنا مع العصر أن نخرج العدو بالقوة من المراكز التي كان يحصنها على طريقنا، والتي لو بقي فيها لاستطاع أن يمنع النجدة والمؤن عن قواتنا في أسدود طوال فترة الهدنة، وقدت سيارة الجيب عند العصر إلى حيث الموقع الذي حاول العدو احتلاله، ورأيت لأول مرة جثث القتلى من جنوده وحولهم ما كان معهم من ذخائر. ووقفت على ربوة عالية قرب هذا الموقع، ومرة أُخرى بدأت خواطري تسرح.

ها أنا على ربوة عالية في فلسطين بين المجدل وأسدود. البحر بزرقته الداكنة يمتد حتى حافة الأفق جليلاً مهيباً. والشمس الحمراء في موكب الغروب وألوانها الرائعة تهبط وراء البحر. وبالقرب مني جثث عدو يحاول أن يقتلنا وقد نجحنا في قتله. وإلى الشرق مواقع قواتنا المتناثرة.. التي أدت كل ما طلب منها حتى الآن رغم العقبات التي واجهتها والمصاعب التي سدت طريقها.. رغم الجبهة الواسعة.. رغم القوات المشتتة المبعثرة.. رغم الحرب السياسية.. رغم النار تندفع إليها بلا دروع تحميها.

وإلى الجنوب مقر قيادتنا التي تعيش في ميدان القتال وتحارب حرباً سياسية.

وإلى الجنوب الشرقي عاصمتنا التي تتحكم في أمرنا وتوجهنا إلى حيث تريد، وإرادتها اليوم هي حرب ولا حرب.

وهناك بعيداً... في نيويورك مجلس الأمن حيث مجموعة من أحد عشر رجلاً قرروا فيما بينهم أن تقف المعركة التي نعيش فيها، وعلينا أن نطيع.

وملأت رئتي بهواء البحر واستدرت إلى سيارتي عبر جثث العدو المبعثرة قرب الطريق وأنا أسأل نفسي:

– "ماذا بعد ذلك... ترى ما الذي يخبئه لنا القدر."

كان حالنا قبل الهدنة حرباً ولا حرب. وبعد أن عقدت الهدنة تطور حالنا إلى سلام بغير سلام..

وكان هناك شعور عام على خطوطنا بأن القتال لن يستأنف مرة أُخرى.. وكان المنبع الذي انبثق منه الشعور دون شك هو خرافة الحرب السياسية.

وما من شك أن ظواهر الأحوال أعدت هذا الشعور على أن يغمر خنادقنا.

كنا نخوض حرباً بلا استعداد، في كل ناحية كان يمكن أن يستعد لها جيش يحارب.. كان قائدنا في الميدان يخضع من القاهرة لتوجيهات هي آخر ما تقتضيه احتمالات الميدان.. وكان في نيويورك – حيث مجلس الأمن – من يملك أن يفرض الصمت على مدافعنا بإشارة من يده.

وظهر التراخي – نتيجة لهذا كله – على مواقعنا، وكنت من مكاني في أسدود كأركان حرب للكتيبة السادسة أراقب هذه الحال بقلق لا أستطيع أن أخفيه.

وكان الذي يزيد من قلقي أنه في الوقت الذي يحدث فيه ذلك لناحيتنا من خط القتال.. تضج الناحية الأُخرى بما يكن أن يكون نقيضاً له في كل شيء.

وكان في أسدود برج عال، وكنت أصعد إلى أعلى البرج أحاول أن أمد بصري إلى الناحية الأُخرى.

لم يكن عليها هدوء. لم تكن تحكمها هدنة. كان النهار يكشف أمامنا حركة متصلة. وكان الليل يفشي أسراراً يحاول أصحابها إخفاءها تحت ستار الظلام.

وكنت عندما يجيء الليل، في كثير من الأحيان، أترك مركز رئاسة الكتيبة الذي كان في مبنى محطة السكة الحديد المصنوع من الأسمنت المسلح وأتجه إلى البرج العالي، وأقف هناك ساعات متصلة.. وعيوني متجهة عبر خطوطنا الهادئة إلى الناحية الأُخرى.

وكانت أنوار المستعمرات البعيدة تبدو واضحة من ارتفاع البرج العالي – وكنت ألمح أنواراً كثيرة متحركة متجهة إلى المستعمرات عائدة منها.

كان الموقف العسكري كله من فوق البرج العالي، يبدو أصرح وأجلى ما يكون.

كانت أيام القتال بالنسبة لنا حرباً ولا حرب. وكانت بالنسبة للعدو حرباً فقط.

وأصبحت أيام الهدنة بالنسبة لنا سلاماً ولا سلام. ولم تصبح بالنسبة للعدو سلاماً قط.

وكانت الأخبار تصلني بانتظام بما يجري في الناحية الأُخرى من الخطوط.

وكان الموقف على الخريطة أشبه ما يكون بالموقف كما يبدو من قمة البرج العالي الذي يحمل فنطاس المياه، لأسدود.

في أول يوم للهدنة تحرك العدو، فاحتل عِبْدِس التي كانت قرية عربية تكاد تكون متداخلة مع خطوطنا..
وتحرك العدو أيضاً فاحتل بيت داراس.
وتحرك العدو فاحتل الجسير.
وتحرك العدو فاحتل العسلوج.
وتحرك العدو فاحتل جولِس.
وتحرك العدو وحاول أن يدفع بعض قوافله المتسللة عبر خطوطنا إلى المستعمرات المحاصرة في النقب الجنوبي.

العدو إذن لم يأخذ الهدنة جداً. لقد كانت بالنسبة له فرصة للتعزيز – إنه يقفز تحت ستارها إلى مواقع حاكمة، يستطيع منها – يوم تنتهي الهدنة – أن يبدأ عملياته من أكثر المراكز ملاءمة لأغراضه.

كان الموقف واضحاً لا خفاء فيه لمن يكلف خاطره فيلقي نظرة على الخريطة، أو يتجه بعينيه عبر الناحية الأُخرى من خط القتال.

ومع ذلك لم يبد في قيادتنا ما يدل على أنها وعت المعنى الحقيقي لهذا الذي يجري أمامنا، وكان الذي يشغلها على ما يبدو في ذلك الوقت هو إعداد التقارير الضافية عما جرى من يوم بدأت المعركة حتى فرضت الهدنة، وكان أبرز ما اهتمت به قيادتنا وأسهبت في وصف تفاصيله هو كيف اقتحم الجنود مستعمرات العدو وهم يهتفون بحياة جلالة القائد الأعلى للجيش، وهو ما لم يحدث بالقطع، فإن الجنود المهاجمين كان يشغلهم من نيران العدو ما لا يمكن معه أن يخطر ببال واحد منهم أن يهتف "لجلالة القائد الأعلى للجيش".

ومضت الأيام..

ومع مضي الأيام كانت همومي تزداد. لم يكن هناك ما أشكو منه في أسدود. فقد كان كل ما نحتاج إليه متوفر وزيادة. كنا نعيش وكأننا في معسكر في القاهرة. كانت الضحكات تملأ خنادقنا، وكانت النكات تلف المواقع. وكانت بعض النكات التي تضحكنا في ذلك الوقت خليقة بأن تبكينا..

وأذكر ذات يوم أني التقيت بجندي من كتيبتنا، وخطر في بالي – دون سبب محدد – أن أوجه إليه سؤالاً أحاول أن أعرف من ورائه مدى فهمه للذي نقوم به في فلسطين..

وقلت له: إحنا هنا بنعمل إيه يا عسكري.

وقال الجندي، ولن أنساها طوال عمري: إحنا هنا بنناور يا أفندي..

وذهلت وقلت له: نناور.. نناور فين يا عسكري.

وقال الجندي بلهجة الذي يقرر حقيقة بدهية: في الربيكي. (هي المنطقة الواقعة على طريق السويس،[22] والتي اعتاد الجيش المصري أن يقوم فيها بمناوراته كل عام..)

كنا إذن نناور في الربيكي، ولم نكن نحارب في فلسطين. أو هكذا كان يعتقد جندي من كتيبتنا. ولكن هل كنا نستطيع أن نلومه.

وضقت ذرعاً بالبقاء في مركز قيادتنا، فذهبت أتجول في المواقع وأتعرف إلى حقيقة الجو فيها بين الضباط.. ولا أنكر أني في الحقيقة كنت أحاول أن أضم بعضهم إلى تنظيم الضباط الأحرار..

ولم أكن أتجه إلى الأمر مباشرة في أحاديثي مع الضباط، فلم أكن أريد أن أشغلهم عن الجو المحيط بهم مباشرة، ولا أن أشتت أفكارهم عن العدو الرابض أمامهم متربصاً بهم. ولكن طريقتي في ذلك الوقت كانت ترتكز على عاملين:

أن أعطي الثقة لكل من أقابلهم، والعامل الثاني أن أقوي صلتي الشخصية بهم إلى أبعد حد.

وكنت واثقاً – وبررت التجربة أسباب ثقتي – أن الثقة والصداقة كفيلتان عندما يحين الوقت المناسب أن تتحولا إلى شيء أعمق...

وأنا أنظر حولي الآن، فأجد وجوهاً كثيرة في تنظيم الضباط الأحرار التقيت بها لأول مرة في الخنادق في تلك الفترة العجيبة من حياتنا في فلسطين...

وقاربت الهدنة أن تنتهي. وكان لا بد لجو التراخي على خطوطنا أن يشعر بالخجل ووخز الضمير...

وبدأت محاولات لتدريب الجنود. ووصلتنا أحاديث عن نجدات سوف تصل إلينا تتقدمها قوات مدرعة.[23]

وانعقدت في قيادتنا مؤتمرات لبحث الموقف عندما تنتهي الهدنة. وتلقت كتيبتنا في صباح 28 يونيو [حزيران]

أمراً إنذارياً بالاستعداد للهجوم في يوم لم يحدد بعد... على هدف لم يحدد أيضاً.

وكان هناك شيء غريب في هذا كله، كان مفروضاً أن يكون هذا كله جداً، لكن شيئاً ما، نبرة خفية في صوت الحوادث كانت تحمل على الشك...

كان هذا كله أشبه بالجد... ولكن – وهذا هو الغريب – لم يكن جداً.

فقد كان الشعور بأن الهدنة دائمة، وبأن القتال لن يستأنف مرة أُخرى، وبأن الحرب كلها مناورة سياسية، لا يزال يملأ خنادقنا.

وحضرت في تلك الفترة مؤتمراً في رئاسة اللواء[24]... وأذكر أن شعوراً غريباً كان يملأ خواطري وأنا أجلس إلى مائدة الاجتماع في رئاسة اللواء. كان اليقين الكامل ينقص كل ما كان يدبر ويرسم من خطط. وخيل إليّ أنني أرى مسرحاً أمامي. مسرح يحاول كل واحد من الواقفين فيه أن يتقن دوره... ويبالغ في رسم معالمه، ولكن كل واحد منهم يدرك أنه مجرد دوره ثم ينتهي ويعود إلى شخصيته الأصلية.

وكان هذا يتناقض مع روح القتال كما كنت أتصورها، فإن مواجهة المعركة والتدبير لها ليسا مجرد دور يجيد ممثله أو لا يجيد، إنه حياة وهو في كثير من الأحيان موت أيضاً...

ولكن اليقين كان ضائعاً... ومن هنا اختفت روح القتال الحقيقية...

وفي يوم 30 يونيو [حزيران] حضرت مؤتمراً حربياً ثانياً في رئاسة اللواء. كنت أحضره كأركان حرب للكتيبة السادسة، وكان مفروضاً أن نتلقى فيه تعليمات قيادتنا عن الخطة المقبلة لقواتنا ساعة تنتهي الهدنة.[25]

كانت الخطة هي القيام بعمليات هجومية على طول الجبهة.

وفي قطاعنا نحن كان الوضع كما يلي:

تتقدم الكتيبة السابعة – التي كانت قد وصلت إلى الميدان قبل الهدنة بقليل – وتستولي على بيت داراس.

يجيء دورنا نحن، الكتيبة السادسة، بعد ذلك مباشرة حين نتقدم إلى احتلال السوافير الغربية والسوافير الشرقية.

ولم يكن مفروضاً بالطبع أن أناقش الخطة، فلم نكن في المؤتمر لكي نناقش وإنما لكي نتلقى الأوامر، ويكون جوابنا عليها هو السمع والطاعة.

ولكني لم أستطع أن أمنع عقلي من أن يناقشها، وإن كنت كبحت جماح لساني عن أن ينطق بكلمة واحدة مما يدور في رأسي. وكان الذي في رأسي سهلاً منطقياً. هذه الأهداف التي نرسم الخطط للاستيلاء عليها، كانت يوم الهدنة – وقبلها بالضبط – خالية تماماً من قوات العدو.. فلماذا سكتت قيادتنا عن احتلالها.

لماذا تركت العدو يصنع هذا في فترة الهدنة، وأعطته شهراً كاملاً لكي يدعم مراكزه فيها ويحصنها... وبعدها نعود نحن لنهاجم لكي نستولي...

بل أكثر من ذلك، كانت هذه المناطق كلها خالية حتى إلى ما بعد أسبوعين من قيام الهدنة، وكانت دورياتنا تذهب إليها، وبعض الدوريات كانت تعود من هناك بكميات من العنب الشهي، كنا نسميه عنب بيت داراس. فلماذا لم تكلف واحدة من هذه الدوريات العائدة بالعنب لتبقى في بيت داراس وتحتلها، وبالتالي تمنع العدو من احتلالها، وبالتالي أيضاً توفر الجهد الذي سنبذله الآن للاستيلاء عليها... وبمعنى آخر كانت كل هذه المواقع أمامنا لنأخذها بدون قتال...

ولكن قيادتنا العامة آثرت أن تترك الفرصة السانحة للعدو لكي يستولي هو على هذه المواقع بدون قتال، ثم يخوض جنودنا معارك حامية لكي يستردها من يده...

وكانت الأفكار تتداعى في رأسي، واحدة بعد واحدة، وأنا جالس في المؤتمر أسمع ولا أتكلم، وفي رأسي ما فيه من خواطر...

إذن فإن قائد العدو هو الذي أخذ المبادأة في يده... وإذن فإن قائدنا لم يستطع أن يقدر قيمة هذه المواقع فتركها لخصمه، ثم أحس هو بعد خصمه بقيمتها، فبدأ يجند الرجال لاستردادها.

ومع ذلك، قلتها لنفسي، وأنا أطرح ما في رأسي كله جانباً:

– إن المهم الآن هو الواقع الموجود على الطبيعة، ولنترك ما كان أو ما كان يجب أن يكون...

وعدت إلى كتيبتي بعد المؤتمر في ذلك اليوم وقلبي تملأه الأحلام...

كيفما كانت الأحوال المحيطة بنا، فيجب أن نقف على أقدامنا ونخوض معركة مجيدة...

كنت أريد أن أفعل كل شيء من أجل كتيبتي..

كنت أريدها أن تضرب مثلاً في الميدان لغيرها من الكتائب، وكنت أحس على أي حال أكثر من غيري، بالمصاعب النفسية التي تعيش فيها الكتيبة.

كانت الكتيبة ما زالت تعاني آثار التجربة التي واجهتها أمام الدنجور. وصممت فيما بيني وبين نفسي أن نتلافى كل الأخطاء، وأن نحسب كل العوامل، حتى لا يتكرر الذي حدث في معركة الدنجور.

وفي صباح أول يوليو [تموز]، والهدنة ما زالت تحكم أرض العمليات، خرجت مع قائد الكتيبة وزملائنا من الضباط الذين ستقع عليهم مسؤولية العمل، لكي نستكشف بعيوننا الميدان الذي سنحارب فيه.

ولكن الاستكشاف لم يكن سهلاً كما تصورنا، فإننا لم نستطع على الإطلاق أن نلقي نظرة واحدة على السوافير الشرقية أو الغربية..

وكان السبب أن التبّة العالية الممتدة أمامنا تخفي السوافير تماماً عن أنظارنا، ولم يكن في استطاعتنا أن نصعد على التبة العالية ونلقي نظرة من فوقها، لأن بيت داراس التي يحتلها العدو كانت ترتكز فوقها من ناحية، ومن الناحية الأُخرى كانت ترتكز على معسكر جولِس الذي يحتله العدو أيضاً..

وكان من رأيي أنه لا بد أن تكون لدينا معلومات عن الهدف الذي ننوي أن نحارب من أجله، وأن تكون هذه المعلومات مفصلة، وإلاّ تكررت كارثة الدنجور..

وخرجت في اليوم التالي ومعي ضابطان، أولهما ضابط مخابرات الكتيبة، والثاني هو الملازم أول إسماعيل محيي الدين ضابط فصيلة الحمالات.

وكان معنا اثنان من الجاويشية، أولهما الجاويش عبد الفتاح شرف الدين، الذي لا يزال حتى الآن صول شرف في القوات المسلحة، والذي أعتبره من أكثر الناس بلاء في فلسطين. وثانيهما الجاويش عبد الحكيم، وهو الآن يعمل سائقاً في المنيا، وقد زرتهما منذ شهور قليلة، وكان من أمانيّ أن ألتقي فيها بعبد الحكيم..

كان يخالجني شعور بأن الاستيلاء على السوافير سيكون عملية سهلة.

ولست أدري لماذا كنت أشعر شعوراً خفياً بأن قوات العدو فيها ليست مما يخشى خطره..

وعلى أي حال، فها نحن في الطريق لكي نرى بأنفسنا ونستكشف.

وتركنا سيارتَي الجيب اللتين كنا نركبهما، ثم بدأنا المرحلة الخطيرة من رحلتنا داخل مواقع العدو.. كنا نخترق أرضاً كلها حدائق.

وكنا نتسلل في صمت بين الأشجار. كان إسماعيل محيي الدين يرحمه الله – فقد استشهد بعدها بقليل – يسير في المقدمة. وكنت بعده وبجواري ضابط المخابرات. وكان عبد الفتاح وعبد الحكيم يسيران على جانبنا وفي يد كل منهما مدفعه المتأهب لقذف النار.

ولست أريد أن أمضي في تفاصيل الخطر الذي كان يحيط بنا، فإن ما أرويه هنا هو قصة جيش، وليست قصة مغامرة..

والمهم على أي حال، أننا استطعنا الوصول إلى موقع متقدم يقع وسط خطوط العدو، ولقد بدت لأعيننا السوافير الشرقية والسوافير الغربية.

وقضينا نصف يوم نملأ عيوننا مما حولنا.. تأملت كل نقطة في السوافير، ودرست احتمالاتها، وقام ضابط المخابرات برسم تخطيط كامل لمنطقة معسكر جولِس وما يحيط به من تحصينات. ولقد وجدت ما يعزز رأيي الذي سبق أن كونته عن قوات العدو في السوافير. لا بد أن عددها كان قليلاً كما توقعت.. كان كل شيء حولي يؤيد هذا الرأي، حتى أشجار الكرم المثقلة بما كانت تحمله من عنب ناضج، فلو أن قوات السوافير كانت جموعاً كبيرة، لما تركت منطقة الحدائق التي كنا فيها خالية، ولما تركت هذا العنب الناضج الحلو مدلى من شجرة..

ولم يطل استمتاعنا بالعنب على أي حال.. فلقد لمحنا إحدى دوريات العدو متجهة إلى موقع النبي صالح، حيث تركنا سيارتَينا..

وهكذا بدأنا نتسلل عائدين..

وعدنا في اليوم التالي إلى منطقة النبي صالح، واكتفينا بالوصول إليها، فلم تكن بنا حاجة إلى مغامرات الأمس، وفي هذه المرة كان معنا قائد الكتيبة وقواعد السرايا، فقد أردت أن يرى كل منهم على الطبيعة دوره في العملية، وكان في رأيي أن هذا يحقق غرضين:

الأول، أن ترتفع روح الكتيبة المعنوية بأن تدرك تفوقها على العدو الذي تعلم كل شيء عنه وعن مواقعه قبل

مهاجمته..

والثاني، أن تحقق الكتيبة من وراء ذلك نصراً يرفع اسمها بين الكتائب المحاربة في الميدان.

وفي يوم 6 يوليو [تموز] كنت أستطيع أن أفاخر بأنه ما من كتيبة من الكتائب المتأهبة للعمل فور انتهاء الهدنة تعرف دورها مثل كتيبتنا.

كان كل واحد من ضباط الكتيبة يعرف عمله. وكنا جميعاً على استعداد. كل الذي ننتظره أن تتحرك الكتيبة السابعة قبلنا فتحقق غرضها بالاستيلاء على بيت داراس، وفي أعقابها نتقدم نحن إلى السوافير...

ولكن الأمور لم تسر على النحو الذي أعددنا أنفسنا له، فإن الكتيبة السابعة لم تستطع أن تقوم بدورها في الخطة.

ولم يكن الذنب ذنب الكتيبة، وإنما جاءت الكارثة من مهزلة صنعها سوء الحظ.

كان المفروض أن تتقدم قوة سودانية[26] وتقوم بهجوم ليلي على بيت داراس، وتقتحم مواقعها بالليل معتمدة على المفاجأة. وكان على القوة أن تطلق إشارة ضوئية خضراء إذا نجحت مهمتها، وحينئذ تتقدم الكتيبة السابعة في أعقابها لتدعم وتعزز. أمّا إذا لم تستطع القوة السودانية أن تتم اقتحامها فعليها أن تطلق إشارة ضوء حمراء وتبتعد قليلاً عن بيت داراس لأن الخطة في هذه الحالة أن تركز مدفعية الميدان الثقيلة كل نيرانها على بيت داراس.

ونجحت القوة السودانية في اقتحامها. ولكن الفشل كان يدخر جهده حتى اللحظة التي تطلق فيها الإشارة التي تنتظرها الكتيبة السابعة.

كان مفروضاً أن تنطلق إلى السماء المظلمة إشارة خضراء، ولكن الجندي المكلف بإطلاق الإشارة استعمل طلقة حمراء.

وحين ارتفعت الإشارة الحمراء في ظلام الليل، بدأت مدفعية الميدان كلها على الفور تدق مواقع بيت داراس التي تحتلها القوة السودانية.

وفشلت المعركة طبعاً. فقد انسحبت القوة السودانية مسرعة. ولما هدأ ضرب المدفعية عاد العدو إلى احتلال بيت داراس من جديد.

وكنا نحن في الكتيبة السادسة نكاد نجن لهذا الذي حدث. كان معناه بالنسبة لنا أن تضيع الفرصة التي أعددنا أنفسنا لها وتضيع معها الآمال التي منينا أنفسنا بها. ومعها كل ما بذلنا من جهد وأعددنا من خطط.

ولم يكن هناك ما نستطيع عمله إلاّ أن ننتظر التطورات المحتملة، وندعو الله أن تسنح لنا خلالها فرصة فنصنع الذي أعددنا كل شيء لكي نصنعه.

وفجأة تطورت الأمور تطوراً لم أكن أتوقعه. وأعترف فيما بيني وبين نفسي، أنني لأول مرة وأنا في الميدان رفعت صوتي محتجاً ضد أمر صدر إليّ من قيادتي.

كنا يوم 9 يوليو [تموز] جالسين إلى الغداء في مركز رياسة كتيبتنا. ودخل جاويش يحمل مظروفاً من رياسة اللواء عليه اسمي بوصفي أركان حرب الكتيبة السادسة. وفتحت المظروف وأنا على الغداء، وبدأت عيناي تجريان على سطوره. وفجأة أحسست أن الطعام تحجر في حلقي.

كان الخطاب يحوي سطرين هما:

1 – تسلم الكتيبة السادسة مواقعها اليوم إلى الكتيبة الخامسة المتقدمة من غزة.

2 – تستولي الكتيبة السادسة باكر 10 يوليو [تموز] على بلدة جولِس.

ولا بد أن ملامح وجهي فضحت ما كان يدور في نفسي وأنا أقرأ هذا الأمر، فإن كل من كان معنا على الغداء من الضباط توقفوا عن الطعام وتطلعوا إليّ.. وكان شعورهم مثل شعوري بعد أن عرفوا ما عرفت.

ها نحن نوجه إلى معركة لم نعد أنفسنا لها.

لم يقل لنا أحد ما هي مواقع جولِس، وما هي قوة العدو فيها. وما هي تحصيناته. وما هي قواتنا التي تعمل حولها. وما هي العمليات المحيطة بمنطقتها.

ولم يعطنا أحد الفرصة لندرس فرضنا مثل ما فعلنا في السوافير.

وأحسست أنه بالرغم من إرادتي، وتحت سمعي وبصري، توضع الكتيبة مرة أُخرى في نفس ظروف الدنجور دون أن يكون بيدي ما أصنعه.

وبدأت أحتج. ولكن ماذا يجدي احتجاجي.

كان الوقت كالسيف المسلط على أعناقنا. كان باقياً على غروب الشمس ثلاث ساعات هي آخر ما تبقى لنا من أمل لكي نخرج في الضوء ونلقي نظرة على الهدف أمامنا.

وخرجت مع القائد وقواد السرايا نحاول أن نقترب من جولِس إلى أقرب ما يمكن أن نصل إليه.

واقتربنا في حمى إحدى بيارات البرتقال حتى أصبح بيننا وبين جولِس ما يقرب من كيلومتر واحد.

ولم نستطع أن نبقى طويلاً، فإن العدو على ما يبدو أحس بوجودنا فبدأ يفتش المنطقة بقنابل الهاون.

ومن ناحية أُخرى كان النهار يجري بأسرع ما رأيت النهار يجري في حياتي، وبدأت الشمس ترتمي في أحضان الغروب.

ولم يكن هناك مفر من أن نعود... وعدنا.

وجلست بعد عودتنا إلى مركز الرئاسة أضع الخطة.

لقد أحس العدو أننا قمنا بالاستكشاف من ناحية بيارة البرتقال، وسوف ينتظرنا في الغد لكي نهاجمه منها بالطبع.

وإذن، فلن يكون هجومنا الرئيسي غداً من هذا الاتجاه.

سوف نبعث قوة تطلق النار لكي يظن العدو أننا وقعنا في الشرك، ولكن القوة الحقيقية التي ستنفذ الهجوم سوف تجيء من الخلف وسط مزارع الذرة وتنقض على مواقعه.

ووقع الخلاف بيني وبين قائد الكتيبة على دور المدفعية والطيران في المعركة.[27]

كنت كضابط أركان حرب أؤمن بالعمل المرتب الموقوت بجداول محددة.

ورأى القائد أن يترك إليه أمر توجيه المدفعية والطيران حسبما يرى حاجة على الطبيعة عند المعركة.

ولم أكن أؤمن بهذه الطريقة، ولكن لم يكن أمامي ما أفعله بعد أن قال لي القائد: وحياتك يا أخويا بلاش الكلام بتاع كلية أركان حرب ده.

وبدأ الصباح يطلع على أرض المعركة... وعلى المعركة نفسها.

كانت البداية كما أردت وتمنيت. ولكن الباقي، كل ما جاء بعد البداية، لم يسر، لا كما أردت ولا كما تمنيت.

وكانت أولى الخطوات على الطريق الذي لم أرده ولا تمنيته من قائد الكتيبة. فقد قال لي فجأة وهو يراقب عمليات المشاة: إحنا بنعمل إيه هنا... ياللا نشوف عساكرنا تحت.

وكانت تلك في تقديري روحاً طيبة، ولكنها كانت خروجاً على العمل الذي يجب أن يقوم به القائد.

إن مهمة القائد أن يمسك العملية كلها حتى لا تفلت ولكن مهمته ليست أن يترك الزمام ويجري إلى التفاصيل ويشغل نفسه بها، وينسى قيادته المرجوة ساعة الخطر.

وحاولت أن أقنعه برأيي، ولكن الحماسة كانت قد ركبته.

ونزلنا إلى حيث كان جنود المشاة، ولكننا لم نستطع أن نصل. فقد غرزت سيارتنا على الطريق ولم تستطع أن تشق سبيلها.

ونزلنا، القائد، وأنا، وحراسه ندفع السيارة من حيث عجزت عن الحركة.

وأحسست أني أفقد أعصابي... بنفس الطريقة التي أحسست أننا نفقد بها المعركة.

لم نبق في مركز القيادة حيث كان في الإمكان توجيه المدفعية وتوجيه الطيران، ولم نصل إلى جنود المشاة المهاجمين على مواقع العدو.

وعندما وصلنا أخيراً إلى مشاتنا المهاجمين... بدأ قائد الكتيبة الطيب يفقد أعصابه. لقد التفت الرجل فوجد جنوده يتساقطون من حوله. بعضهم يقتل وبعضهم يجرح. وبدأ الرجل يصيح كالثور الهائج: العساكر بيموتوا.

واقترحت عليه أن نتجه إلى الناحية الأُخرى لنرى كيف تسير العملية، وذهب معي. وكان أول ما قابلنا أربعة من مدافع الهاون تنتظر دورها في المعركة، وإذا القائد يصرخ قائلاً: المدافع دي بتعمل إيه هنا.

ثم إذا هو يصدر أمره بأن تتقدم المدافع الأربعة، لكي تتمكن من ضرب جولِس، وإذا هو يلتفت إليّ – أنا أركان حرب الكتيبة – ويقول لي: اطلع معاهم.

ونظرت إليه في دهشة. لقد كانت مهمتي كأركان حرب للكتيبة أن أبقى معه أساعده في إدارة العملية وتنفيذ الخطة التي رسمتها... وكان في رأيي أن قيادة العملية بأكملها قيادة صحيحة أهم ألف مرة من مظاهرة شجاعة أخرج فيها بأربعة مدافع هاون.

وكان الموقف حساساً. ولم أكن أريد أن أعارض قائد الكتيبة في رأيه حتى لا يتصور الرجل أن معارضتي له لا تخرج من عقلي، وإنما تصدر من أعصابي.

ونظرت له، وفي نفسي ما فيها، وقلت له كلمة واحدة: حاضر.

وانطلقت مع المدافع الأربعة وسط حقول الذرة إلى أن أصبحت جولِس في متناول مرماها.

وبدأت مدافع الهاون تطلق قنابلها، ولكني لم أكن أسمع الدوي، فقد كنت أتصور حال الكتيبة التي أفلت زمامها.

وأحسست أن قلبي يتمرد عليّ، وعقلي يتمرد على قائدي، وكنت مطمئناً إلى وضع مدافع الهاون، فقررت أن أعود لكي أحاول أن أمسك الزمام قبل أن تقع كارثة.

وقال لي أول ضابط لقيته بعد أن خرجت من حقول الذرة، إن إسماعيل محيي الدين قد قتل.

ولست أظن أن من حقي أن أخفي اليوم مشاعري الإنسانية. إني أعترف أني لحظتها فقدت سيطرتي على عواطفي وإذا دموعي تفلت، وإذا أنا أبكي بحرقة لم أشعر بها من قبل في حياتي. كنت أبكي على زميل سلاح شجاع سقط في المعركة. وكنت أبكي على المعركة نفسها وزمامها في يد الريح.

ووصلت إلى مركز الرياسة ولم يكن فيه أحد. وسألت عن القائد وإذا هو خرج إلى حيث لا يعرف أحد، وبدأت أطالع في لهفة الإشارات التي تلقتها الرياسة من سراياها المبعثرة في الميدان.

واحدة منها تقول: "وصلنا إلى الغرض... ما هي أوامركم."

وثانية تقول: "نحتاج إلى ذخيرة."

وثالثة تقول: "وصلنا إلى الغرض.. أرسلوا حمالات لنقل الجرحى."

وكانت الكارثة، أنها كلها إشارات يعود إرسالها إلى وقت مضى.

فما الذي جرى لهذه السرايا في مواقعها، وكيف واجهت الموقف وحدها وقيادتها لا ترد عليها.

وحاولت أن أواجه الموقف بقدر ما أستطيع. وحاولت أيضاً أن أتصل بقواتنا الموجودة غرب جولِس، ولكن هذه القوات لم تكن ترد على إشاراتنا لها.

ثم فهمت السر حين وصل إليّ أحد راكبي الموتوسيكلات يقول: "إن القائد أصدر أمره بسحب القوة الموجودة إلى الغرب، وهو يطلب مني أن أسحب القوات الهاجمة من الجنوب."

ولكن كيف أسحبها.

لقد سحب القائد القوة التي كانت تضلل العدو عنا، دون إخطاري أو إخطارها.

وبدأت أرى بوضوح أن كارثة تحلق فوق رؤوسنا، وكان الذي يحز في نفسي أن القوة المتقدمة من الجنود للهجوم الأصلي كانت تشق طريقها بنجاح.

وفعلت ما كنت متردداً في عمله طول الوقت.

تخطيت قائدي المباشر، قائد الكتيبة، واتصلت بقائد اللواء أشرح له الموقف.

وعلى أي حال فقد تحول هدفنا بعد ذلك من محاولة الاستيلاء على جولِس إلى عملية يائسة لإنقاذ قواتنا من الفخ الذي كادت تسقط فيه وقضيت ليلة حزينة.

– 3 –

أحسست أن كتيبتنا قد فقدت روحها المعنوية، وأن روحها العسكرية تفترسها الشكوك، وأنها بالتالي لم تصبح سهلة القياد.

وفي الصباح جاءنا أمر من رياسة اللواء: "قائد الكتيبة السادسة يسلمها إلى قائدها الثاني وينزل هو إلى القاهرة."

ومن قلبي أحسست بالرثاء للقائد الجديد. ولكن شعوري بالرثاء لم يدم طويلاً، فقد وصلنا أمر آخر بعد ساعة واحدة نصه كما يلي: "تقوم الكتيبة السادسة باحتلال جولِس اليوم."

وكان رأيي أن هذا مستحيل. وكان القائد الجديد متردداً. كان مقتنعاً بما شرحته له عن الروح المعنوية في الكتيبة، وعن حالتها، ولكنه كان متردداً في أن يأخذ برأيي ويعترض على هذا الأمر حتى لا يقال إن أول عمل له بعد أن أصبح قائداً للكتيبة هو خوفه من أن يخوض بها معركة.

وقلت له: ليس أمامك خيار.. ولن تفقد شيئاً على أي حال، إذا اعترضت فقد يكون هناك احتمال بنقلك من قيادتك [و] تلاحقك الهزيمة، وهو أمر محقق.

واقتنع القائد بمنطقي وقال لي: تجيء معي إلى القيادة العامة.

وقلت له: أجئ معك.

وبينما نحن ندخل رياسة القوات بعدها بساعة واحدة، لقيت غرفة على بابها لافتة باسم: مكتب المساعدة الجوية.

ومررت عليهم أسألهم إن كان عندهم معلومات من جولِس، وأطل ضابط في المكتب يقول لي: عندنا مجموعة من الصور الكاملة للمنطقة من الجو.

وسألته: هل أستطيع أن أراها.

ووضع الضابط أمامي مجموعة كاملة. وبدأت أتأمل الصور، وإذا أنا أكتشف حقيقة عجيبة. إن جولِس نفسها الواقعة في سفح التبة ليست لها أي قيمة، والمهم هو معسكر جولِس القابع فوقها على قمة التبة. ولو فرض ونجحنا في دخول جولِس لكان معسكرها من فوق القمة قد صنع منها مصيدة ومقبرة في نفس الوقت لقواتنا.

وبعد مناقشة قصيرة اعتمدت على صور عثرت عليها بمحض الصدفة، اقتنعت القيادة العامة لنا بأن الاستيلاء على جولِس كارثة من حسن حظنا أن نعدل عنها. وعدت إلى مركز رياستنا وخواطري ثائرة على كل شيء. ثائرة على أنه بمحض الصدفة فقد نجونا من كارثة محققة. ثائرة على معلومات قيمة تضمنتها صور التقطها الطيران فوق هدف كنا سنهاجمه، ومع ذلك فما من أحد فكر في إرسالها إلينا. ثائرة على الذقون الحليقة الناعمة والمكاتب المريحة المرتبة في مبنى القيادة العامة، ولا أحد فيها يدري بماذا تحس القوات المحاربة في الخنادق... ولا مدى ما تعانيه من الأوامر التي تصدر إليها بغير حساب.

ومع ذلك فلم تكن هناك فائدة ترجى من هذه الثورة. وكان الأولى والأجدى أن أدخر أعصابي للمعركة الجديدة التي لم تلبث أن وصلتنا الأوامر بالاستعداد لها.

وكانت المعركة الجديدة نموذجاً صادقاً لكل ما خاضته كتيبتنا حتى الآن من معارك. كانت هي الأُخرى معركة على خريطة. أحدهم في القيادة العامة نظر إلى خريطة ملونة وأحس – وبيده الحق في هذا الإحساس – أن لهذا الموقع أهمية قصوى، فوضع أصبعه عليه وأرسل إلينا أمراً باحتلاله. ولكنه لم يبعث لنا مع الأمر بشيء يساعدنا على التنفيذ.

ولم تكن تلك التي تصلنا من قيادتنا العامة أوامر عمليات، ولقد كنت أسميها قصاصات ورق، وما أظن أنني أخطأت كثيراً في هذه التسمية.

كان الموقع الجديد الذي يتعين علينا احتلاله لقطع مواصلات مجموعة المستعمرات الحاكمة على مدخل النقب، مكشوفاً بطريقة مروعة أمام نيران مستعمرة نجبْا،[28] وكذلك كان الطريق المؤدي إليه من أوله إلى آخره.

وجاءني قائد السرية التي كان عليها أن تذهب لاحتلال الموقع يقول لي: هذه العملية بلاهة وجنون.

وكنت في ضميري مقتنعاً بأن الذي يقوله لا يبتعد كثيراً عن الحقيقة، ولكنني كنت في نفس الوقت أشعر بالأهمية الخطيرة المعلقة على تقاطع الطرق[29] فإن عملية الاستيلاء على مستعمرة نجبا رسمت خطتها كلها على أساس احتلال هذا الموقع.

وقلت لقائد السرية: سوف أذهب معك.

وخرجت معه ومع قوته، وكانت الساعة الثالثة صباحاً. وعندما طلعت شمس الصباح كنا نحتل تقاطع الطرق، وكان جنودنا يحفرون عليه مواقع يكمنون فيها، وكان ثباتهم رائعاً رغم النار المركزة عليهم.

وبدأت معركة نجبا، وكانت السرية في مواقعها رابضة في غير حاجة إليّ، وقررت أن أعود إلى المعركة. والتقيت عند نهاية الطريق المكشوف بأركان حرب اللواء وكان قادماً ليستطلع الموقف. ودهش أركان حرب اللواء، فلم يكن يتصور أن الطريق إلى مركز تقاطع الطرق مكشوفاً إلى هذا الحد، ولم يكن هناك مفر من أن يركب حمالة مصفحة إذا أراد أن يعبر الطريق في وضح النهار. وعدت معه في الحمالة المصفحة. وقررنا العودة بعد قليل، ثم وقعت حادثة من تلك الحوادث التي يتفنن القدر في حبك مواقفها. سمعنا ضرباً قريباً منا في حقل الذرة. وقال لي أركان حرب اللواء: هذا الذي يضرب قريباً منا... هل يعتقد أن الدنيا خالية أمامه.

ثم اقترح قائد اللواء أن ننزل إلى حقل الذرة بالحمالة المصفحة نطارد الضاربين عن قريب في جوار مواقعنا. وهبطت الحمالة إلى حقل الذرة وتجولت فيه، وإذا السكون يسود، وإذا الطلقات التي كانت تئز من داخله تلوذ بالصمت. وتجولنا هنا وهناك وسط حقل الذرة ولا حس ولا خبر. ولم يكن هناك ما يبرر أن نضيع وقتاً أكثر مما أضعنا في حقل الذرة، فبدأت الحمالة تدور حول نفسها عائدة إلى الطريق. وكانت هناك لحظة خطيرة كنت أعمل

حسابها وأحسست بهاتف خفي يحذرني منها... هذه اللحظة هي الثانية التي تعود الحمالة فيها فتصعد بمقدمتها على الطريق المرتفع عن حقل الذرة. فإن سطح الحمالة كله في هذه الثانية سيكون معرضاً مكشوفاً أمام حقل الذرة.[30]

ولم يكن الهاتف الخفي... وهماً... وإن كنت لا أعرف على وجه التحقيق ما هو.

في نفس الثانية التي انكشف فيها سطح الحمالة وهي ترتفع إلى الطريق انطلقت المدافع الصامتة من حقل الذرة.

وفجأة أحسست بشعور غريب في صدري. شيء ما صدمه صدمة خفيفة.

والتفت فوجدت صدري كله غارقاً بالدماء. وأدركت على الفور أنني أصبت... دخلت طلقة في صدري ناحية القلب.

وأخرجت منديلي من جيبي أحاول أن أوقف النزيف، وروحي كلها يملؤها شعور غريب. لم أكن خائفاً، ولم أكن نادماً، ولم أكن حزيناً. كان كياني كله سؤالاً واحداً: أهي النهاية.

ولم أجزع لهذا السؤال. ولست أدري لماذا ذكرت لأول مرة منذ جئت إلى فلسطين ابنتيّ هدى ومنى، وذكرت بيتي، وذكرت أسرتي.

كيف سيكون وقع النبأ عليهم.

وفجأة ذكرت جنودي أيضاً: كيف ستسير المعركة من غيري.

ماذا سيقول كل منهم عندما يصله الخبر.

وكانت في قلبي سكينة عجيبة، وكان في روحي رضاء وصفاء.

والتفت إليّ أركان حرب اللواء الجالس بجواري يحاول أن يصنع أي شيء وكل شيء من أجلي قلت له: أشعل لي سيجارة.

وأمسكت السيجارة بيدي واليد الأُخرى ما زالت تحاول أن توقف سيل الدم المتدفق من صدري، وجذبت نفساً طويلاً عميقاً، وتنهدت وأنا أغمض عيني. وكانت الحمالة تجري بي مسرعة إلى مستشفى المجدل.

ومرت أمام ذاكرتي... وعيناي مغمضتان وفي إحدى يدي سيجارة، وفي الثانية منديل أحاول أن أوقف به نزف الدم المتدفق من إثر رصاصة دخلت فيه... مرت مشاهد كثيرة من الماضي كأنها شريط من الرؤى المتدفقة بعضها وراء بعض... الأحلام والآمال... الطفولة والصبا والشباب... الأسرة والبيت وابنتاي تلعبان في حجراته... تنظيم الضباط الأحرار والخطر المحيط به... تجربة الميدان ومتاعبها وأهوالها... وجنودنا وضباطنا والأعمال التي قاموا بها حتى الآن رغم كل ما أحاط بهم.

وفتحت عيني مرة أُخرى... وجذبت نفساً طويلاً عميقاً من السيجارة المشتعلة في يدي... وكانت الحمالة لا تزال تكر على الطريق متجهة بي إلى المستشفى.

نظرت إلى الطبيب الذي فحصني بعد أن وصلت مستشفى المجدل في دهشة، وأنا لا أكاد أصدقه فيما يقول:

لقد كان تحليله لظروف الرصاصة التي أصابت صدري أغرب من أن يقبل بسهولة.

كنت قد دخلت عليه، وأنا واثق من موضع الإصابة، ومن نزيف الدم من صدري، أن الجرح نافذ، وأن الرصاصة وصلت إلى حدود القلب.

ورفعت منديلي الغارق بالدماء، والذي كنت أحاول به أن أوقف الدم المتدفق من صدري، ونظرت إلى الطبيب وقلت له: صارحني بالحقيقة ولا تتردد.

وبدأ الطبيب يفحص الجرح وهو يهز رأسه بطريقة لم أستطع إدراك مدلولها.

وبدأت أتعجل سماع رأيه، فقلت له: أهو جرح نافذ.

وابتسم الطبيب وهو لا يزال يهز رأسه، ثم قال: اعذرني... فإننا لا نرى مثل هذه الحالة كل يوم.

ثم سألني: هل تعرف ما حدث لك.

قلت: أعرف أهم ما فيه على الأقل... لقد أصابتني رصاصة في صدري.

قال: هذا صحيح... ولكن هل تعرف كيف أصابتك.

وقلت له، وقد بدأت أضيق بهذه المناقشة: كما يصيب الرصاص أي واحد من الناس.

وهز الطبيب رأسه ينفي نفياً قاطعاً وقال: لا... لقد أصابتك رصاصة، ولكن بطريقة تختلف عن إصابة بقية الناس بالرصاص... إن الطلقة التي أصابتك اصطدمت بالجدار المصفح للحمالة التي كنت تركبها، فحدث لها شيء

غريب لا يحدث عادة للرصاص... لقد انفصلت الرصاصة نفسها عن غلافها المعدني... وطاشت الرصاصة عنك، أمّا الذي دخل إلى صدرك فكان غلافها المعدني فقط.

واستلقيت أمام الطبيب على مائدة العمليات، وبدأت مشارطه تجري حول مكان الإصابة، وبعد عشر دقائق قال لي وهو يناولني قطعاً من شظايا النيكل الممزق: خذ... احتفظ بها.

وأمسكت الشظايا الممزقة التي كانت مستقرة في صدري ووضعتها في راحة يدي ورحت أتأملها... وحين سألت نفسي: ماذا كان يمكن أن يحدث لو أن الأمر جرى على العكس... لو أن الرصاصة حينما اصطدمت بالجدار المصفح للحمالة وانفصلت، كان الغلاف هو الذي طاش وكانت الرصاصة نفسها هي التي اتجهت إلى صدري.

حين سألت نفسي هذا السؤال، وجدت روحي كلها أقرب ما تكون إلى الله وأنا أغمغم في سري: الحمد لله.

كان مستشفى المجدل كله خالياً إلاّ مني. كنت حين وصلت إليه في الصباح النزيل الوحيد في كل عنابره. ولقد كان أول ما خطر إلى ذهني بعد أن عرفت حقيقة إصابتي... أنني لم آكل شيئاً منذ وقت طويل. وطلبت فنجاناً من الشاي الساخن، أخذت أحتسيه بهدوء، وعقلي ما زال يدور حول الطريقة الغريبة التي نجوت منها.

وأحسست بعد فنجان الشاي أن شهيتي قد تفتحت وأنني أشعر بالجوع كما لم أشعر به أبداً، وطلبت طعاماً. وتلقيت صدمة حياتي لمّا قيل لي: ليس عندنا طعام.

وقلت بدهشة: كيف... إنني جائع.

وقيل لي إن المفروض أن تبعث إليك كتيبتك بطعامك إلى هنا.

ونظرت إلى الذي قالها لي، وقلت له مستنكراً: كتيبتي.

وعدت أكرر مرة أُخرى: كتيبتي. كتيبتي.

ثم نظرت إليه أقول: أين هي كتيبتي.

وقفز إلى خيالي، وإلى أعصابي، فجأة إحساسي بكتيبتي... أين هي.

لقد تركتها لآخر مرة منذ ساعات قليلة في وضع لا تحسد عليه. تركتها مشتتة على مواقع مفتوحة مكشوفة. تركتها وقد أصدرت إليها قيادتنا أمراً بأن تدخل وسط العدو لكي تحاصره.

وهززت رأسي والصورة الكاملة للحالة التي تركت عليها كتيبتي تملأ وجداني، وعدت أقول وكأنني أكلم نفسي بصوت عال:

– نعم، هذا هو الذي فعلوه تماماً... قالوا لنا ادخلوا وسط العدو لكي تحاصروه، ولكن كيف نحاصره وهو يحيط بنا من كل جانب.

لقد حدث ما كان يجب أن يحدث. حينما أصبحنا وسط قوات العدو، أصبحت قواته هي التي تحاصرنا وليس نحن الذين نحاصر قواته. ولكن كيف كان يمكن أن ندخل في وسطه ونصبح مع ذلك نحن الذين نحاصره.

نعم... كيف... كيف فكروا في ذلك.

وأفقت من خواطري على صوت الذي طلبت منه الطعام في مستشفى المجدل وهو يقول: هيه... هل رتبت مع كتيبتك أن تبعث إليك بطعام.

وقلت له، ونصف ابتسامة مغتصبة تمر على شفتي: ليت كتيبتي في مواقعها التي هي فيها تجد من يبعث إليها بطعام.

ونظر إليّ الرجل وقال لي: لا أفهمك.

وقلت له وأنا أنهي المناقشة: ليست هذه مشكلة ملحة على أي حال... هل أجد عندك من يذهب إلى السوق لكي يشتري لي طعاماً.

وحين عاد أحد الجنود من السوق بعد أن اشترى لي رغيفاً من الخبز وخمسة أقراص من الطعمية وعنقوداً من العنب، وجدت شهيتي قد ضاعت مني... ووجدت أن الطعام هو آخر ما كانت تطلبه نفسي.

واستلقيت على سرير المستشفى منهوك القوى. كان التعب المادي والمعنوي الذي عشناه في الأيام الأخيرة قد بدأ يجتر عظامي وأعصابي.

ومع أني كنت بجسمي مستلقياً على الفراش، فإن عقلي لم يكن مستلقياً معي.

لم أستطع أن أرغم تفكيري على أن يمنح نفسه إغفاءة قصيرة تريحه بعد مجهود عنيف. كان خيالي هناك في المواقع مع كتيبتنا. وكان هناك شيء يضغط على ضميري.

لقد كنت أركز العمل كله في يدي كأركان حرب للكتيبة... فكيف الآن تجري الأمور من غيري.

من الذي تقدم ليحمل المسؤولية التي سقطت عن كتفي، وما هو تأثير عمله على الضباط وعلى الجنود في مواقعهم.

وهتف بي خاطر: ماذا تفعل أنت هنا وهم وحدهم هناك.

ومضى الخاطر الهاتف: إن جرحك غير نافذ، فما هو معنى بقائك في المستشفى، شظايا نيكل دخلت صدرك.

وهممت بأن أقوم... ارتكزت بمرفقي على حافة الفراش وبدأت أرفع جسدي، ولكني لم أستطع أن أمضي في المحاولة إلى آخرها... وتركت الجزء الذي كنت قد تمكنت من رفعه من جسدي يعود فيرتمي على الفراش من جديد.

كنت متعباً، وكان تأثير الصدمة، صدمة الإصابة، وتأثير الدم الذي نزف من صدري ما زالا طاغيين على أعصابي.

وعزمت فيما بيني وبين نفسي أن أستسلم للراحة قليلاً، ثم أهب بعدها لكي ألحق بكتيبتي في مواقعها التي تركتها عندها.

ولكنني لم أستطع أن أستسلم للراحة أبداً... فجأة أحسست بالمستشفى كله يموج بالحركة. كنت منذ دقائق نزيله الوحيد...

ولكنه فجأة بدأ يضيق بالوافدين عليه، وأدركت على الفور أن هذه هي نتائج المعركة الدائرة حول نجبا. وتركت فراشي ملهوفاً وأسرعت إلى الطواف بعنابر المستشفى كلها.

كان المفروض في مستشفى المجدل أن يكون إسعافاً سريعاً، ولم يكن مفروضاً أن يبقى فيه بعد الإسعاف السريع إلاّ ذوو الإصابات الخفيفة، أمّا الحالات الخطرة فقد كانت بعد الإسعاف السريع ترحل فوراً إلى غزة.

ويظهر أن المستشفى من كثرة الذين جاءوا إليه، لم يستطع حتى أن يمارس مهمة الإسعاف السريع، فبدأ يحول الواصلين إليه إلى غزة مباشرة بعد أن ضاق بالذين ملأوه في ساعات قليلة.

كان الحال حولي مروعاً. كانت كل الملابس من حولي مصبوغة بلون الدم. وكانت هناك تأوهات، وآلام يحاول أصحابها أن يكبتوها ويتشجعوا. وكان هناك زميل سلاح اخترقت رصاصة خوذته فوق رأسه ومزقت فروته. وتأملت خوذته وإصابته، وأحسست أني كنت أكثر من محظوظ، وكان هناك زميل من سلاح آخر أصيب بصدمة عصبية. كان شاباً وكنت أعرفه، فقد كان تلميذي يوم كنت مدرساً في الكلية الحربية، وكان يهذي من صدمته بما لا يعي. وتصورت يوم جاءنا في الكلية لأول مرة يرتدي الملابس المدنية، وذكرته في مراحله المختلفة ونحن نصنع منه جندياً مقاتلاً. وها هو ذا يعيش التجربة التي كنا نعده لها.

وقضيت الليل كله ساهراً، لا يقترب النوم من عيني. كنت أفكر فيمن حولي وفي البعيدين عني في المعركة. وكنت أفكر في الحرب نفسها.

وأحسست من قلبي أني أكره الحرب... ليست هذه الحرب التي كنا نخوضها بالذات، ولكن فكرة الحرب نفسها.

أحسست أن الإنسانية لا تستحق شرف الحياة إذا لم تعمل بقلبها من أجل السلام. ■

(*) باريس: مؤسسة "الوطن العربي" للطباعة والنشر، 1978.

وهذه المادة نشرها الأستاذ وليد الخالدي في *Journal of Palestine Studies*, vol. II, no. 2 (Winter 1973), pp. 3-32.

والحواشي التفسيرية من النص الأجنبي المشار إليه.

(1) الإشارة هي إلى العمليات العسكرية المفاجئة التي شنها الإسرائيليون في 28 شباط/فبراير 1955 على قطاع غزة الذي كان، في ذلك الوقت، تحت الإدارة المصرية. وقد استُشهد في العملية الأولى التي شُنّت على معسكر يقع على مسافة ثلاثة كيلومترات داخل القطاع، أربعة عشر جندياً (معظمهم مصريون) ومدنيان، وجُرح ستة عشر جندياً ومدنيان. أمّا العملية الثانية المتزامنة مع الأولى، والتي حدثت على مسافة ستة كيلومترات جنوبي غزة، فأوقعت اثنين وعشرين جندياً شهيداً (معظمهم فلسطينيون) وثلاثة عشر جريحاً.

لمزيد من التفصيلات عن الهجوم وتبعاته أنظر: Lt. Gen. E.L.M. Burns, *Between Arab and Israeli* (Beirut: Institute for Palestine Studies, 2nd. ed. 1969), p. 17.

(2) كانت مدة الانتداب البريطاني على فلسطين ستنتهي في 15 أيار/مايو 1948.

(3) هذا التنظيم هو المنظمة الثورية السرية التي أنشأها عبد الناصر في أوائل أربعينيات القرن الماضي. وقد خرج الضباط الأحرار إلى العلن أول مرة في 23 تموز/يوليو 1952، يوم نجاح انقلابهم على الملك فاروق.

(4) دخلت قوتان مصريتان إلى فلسطين قبل 15 أيار/مايو، وهما: (1) قوة من متطوعين مدنيين ينتمون إلى الإخوان المسلمين دخلت في نيسان/أبريل؛ (2) قوة من متطوعي الجيش المصري بقيادة العقيد أحمد عبد العزيز، دخلت في 6 أيار/مايو، وانضمت إليها فيما بعد مجموعة الإخوان المسلمين. وهذه القوة العسكرية الثانية (والتي لُقبت فيما بعد بالقوات الخفيفة) تم تضخيم حجمها بصورة مبالغ فيها، ففي كتاب لورخ المعنون "حد السيف" (Netanel Lorch, *The Edge of the Sword*, New York, 1961, p. 203)، يُقدر المؤلف حجمها بثلاث كتائب، بينما يُقدرها كِمحي بتسع كتائب في مؤلفه "جانبا التل" (Jon and David Kimche, *Both Sides of the Hill*, London, 1960, p. 243). وفي الحقيقة، ووفقاً للتقرير السري للعمليات العسكرية في فلسطين في سنة 1948، والذي أعدته وزارة الحرب في القاهرة، فقد بلغ تعداد القوة في البداية 124 فرداً و4 ضباط، وكانت مهمتها الأساسية استطلاعية، بينما بلغ في آخر حزيران/يونيو، بما فيه التعزيزات والمتطوعين كلهم، أقل من 800 فرد. ولدى دخولها فلسطين، تقدمت القوات الخفيفة إلى غزة وبلغتها في 11 أيار/مايو، وعندما وصلت وحدات الجيش المصري النظامية إلى غزة في 16 أيار/مايو، تحركت القوات الخفيفة إلى بئر السبع التي احتلتها في 19 أيار/مايو، وإلى بيت لحم التي دخلتها في 21 أيار/مايو.

(5) عضو في مجلس قيادة الثورة، رُقّي بعد قيام الثورة إلى رتبة مشير وأصبح القائد العام للقوات المصرية المسلحة، كما تم تعيينه في سنة 1964 نائباً أول لرئيس الجمهورية العربية المتحدة. أُقيل بعد حرب 1967 من منصبه وانتحر.

(6) تولى محيي الدين، وهو أيضاً عضو في مجلس قيادة الثورة سنة 1952، منصب وزير الداخلية، كما تولى رئاسة الوزراء من تشرين الأول/أكتوبر 1964 إلى أيلول/سبتمبر 1966، وقد اعتزل الحياة السياسية منذ ذلك التاريخ.

(7) عضو في مجلس قيادة الثورة، تطوع للخدمة في القوات الخفيفة، وشارك في العمليات العسكرية بقيادة العقيد عبد العزيز على تخوم القدس الجنوبية الشرقية. اعتزل الحياة السياسية في سنة 1964.

(8) شكلت كتائب المشاة الثلاث هذه نواة تجمع لواء المشاة الذي جمّعته مصر في العريش في 29 نيسان/أبريل، والذي كان القوة الرئيسة التي دخلت البلد في 15 أيار/مايو.

(9) كان قد أُعلن تأسيس دولة إسرائيل بالتزامن تقريباً مع إنهاء الانتداب البريطاني في 15 أيار/مايو.

(10) على الرغم من الإجراءات الاحتياطية التي اتُّخذت على الجبهة، ومن إرسال القوات الخفيفة، فإن مصر لم تقرر دخول فلسطين حتى 14 أيار/مايو.

(11) أُبقي معظم الجيش المصري في مصر لأسباب متعددة هي: التردد في أخذ القرار بالتدخل؛ الاعتبارات الأمنية المحلية؛ عدم الجهوزية التنظيمية التامة. فعلى سبيل المثال، يقدّر التقرير السري للعمليات العسكرية في فلسطين في سنة 1948، أن 60٪ من المواصلات المتوفرة كانت غير جاهزة للعمل، وأن النقص في عتاد الاحتياط وصل إلى 90٪ في بعض الحالات.

(12) كانت هذه هي كتيبة المشاة الثانية التي وصلت إلى رفح في 17 أيار/مايو.

(13) مع تزايد الانخراط المصري في القتال في فلسطين، تم إرسال وحدات الاحتياط بنجاح إلى الجبهة، وهي وفق التقرير السري: كتيبة المشاة السابعة (وصلت إلى غزة في 22 أيار/مايو)؛ مقر قيادة الكتيبتين الثانية والرابعة (غزة، 30 أيار/مايو)؛ كتيبتا المشاة الثالثة والرابعة (غزة، 3 حزيران/يونيو).

(14) هذا هو الاسم العربي للموقع الذي أُقيمت فيه المستعمرة نيريم. وهذه المستعمرة الواقعة في أقصى الجنوب، هي ضمن مجموعة من نحو ثلاثين من نوعها انتشرت على امتداد الجناح الشرقي للطريق الساحلي من رفح إلى المجدل. وعلى العموم، فإن المستعمرات الواقعة جنوبي المجدل كانت تحت القيادة المركزية للواء هَنيغِف بالماح، بينما كانت تلك التي إلى الشمال، تحت لواء غِفعاتي التابع لسلاح الميدان. علاوة على ذلك، كانت مستعمرة نيريم التي تقع نحو أربعة كيلومترات جنوبي شرقي رفح، إحدى المستعمرات الخمس التي تطل أو تنفتح على الطريق الساحلية من رفح إلى أسدود.

(15) الإشارة هي إلى مستعمرة ياد مردخاي (قرب قرية دير سنيد العربية) الواقعة بمحاذاة الطريق الساحلية شمالي غزة.

(16) تقع المنطقة الساحلية بأكملها من رفح إلى أسدود ضمن الأراضي المخصصة للدولة العربية كما جاء في قرار التقسيم الذي أصدرته الأمم المتحدة.

(17) هذه القرى العربية الثلاث، والتي تقع ضمن مساحة الدولة العربية أيضاً، كانت على الطريق الجانبية الأساسية شمالي غزة، التي تربط الساحل بطريق بئر السبع – القدس.

(18) كانت هذه الكتيبة إحدى كتائب الاحتياط التي كانت متمركزة في مصر في بداية العدوان، وقد وصلت إلى غزة في 22 أيار/مايو.

(19) هذا هو الشعب الضيق حيث تبدأ الطريق الرئيسية من يافا بالصعود نحو القدس. وكان الفوج الرابع من فيلق البادية العربي الأردني قد تحصن في نتوء جبلي فوق اللطرون (الواقعة ضمن الدولة العربية وفق قرار الأمم المتحدة، والمتحكمة في المنافذ إلى المضيق). وكان اليهود قد قاموا في 25 أيار/مايو بهجوم رئيسي فاشل لطرد الفيلق من هذا الموقع.

(20) هذه هي المستعمرة الأكثر تقدماً إلى الشمال على امتداد الخط المصري المتقدم بمحاذاة الطريق الساحلية، والمشرف على المنافذ إلى أسدود من الشمال، وكانت تحت الإمرة المركزية للواء غِفعاتي.

(21) في 29 أيار/مايو دعا مجلس الأمن إلى هدنة لأربعة أسابيع، تبدأ في 11 حزيران/يونيو، وقد وافق الجانبان عليها.

(22) الربيكي هي محطة قطار وسط الطريق الصحراوية تقريباً بين القاهرة ومدينة السويس التي تقع على القناة من جهة البحر الأحمر.

(23) فيما يتعلق بقوة سلاح المدرعات المصري، كما كان، أنظر: Walid Khalidi, *From Haven to Conquest* (Beirut: Institute for Palestine Studies, 1971), p. 870.

(24) من المفترض أنها مقر قيادة مجموعة اللواء الرابع. وقبل استئناف القتال في نهاية الهدنة الأولى في 8 تموز/يوليو، أعيد تنظيم القوات المصرية المعززة تحت مجموعتين من الألوية: الثاني والرابع. وبهذا صارت مجموعة اللواء الثاني تضم كتائب المشاة الرابعة والخامسة والسابعة، أمّا مجموعة اللواء الرابع فتضم كتائب المشاة الأولى والثانية والسادسة والتاسعة.

(25) انتهت في 8 تموز/يوليو هدنة الأسابيع الأربعة، ثم أعقبتها عشرة أيام من القتال وهدنة ثانية (عُرفت بـ "هدنة قتالية") اعتباراً من 18 تموز/يوليو.

(26) هذه القوة المعنية كانت سَرية من حيث القوة، وهي واحدة من السرايا السودانية النظامية الست التي وصلت إلى الجبهة وقت استئناف القتال.

(27) فيما يتعلق بقوة سلاح الجو المصري، أنظر: Khalidi, op. cit., p. 868.

وتشير معلومات إضافية من التقرير السري للعمليات العسكرية في فلسطين إلى أن سلاح الجو هذا ضم: (أ) ست طائرات مقاتلة وطائرة استطلاع في الخط الأول في العريش؛ (ب) ست طائرات مقاتلة وخمس ناقلات داكوتا وطائرة استطلاع في قاعدة القاهرة. وفي 22 أيار/مايو 1948 أسقطت طائرات سلاح الجو الملكي البريطاني (RAF) أربع من مقاتلات الخط الأول الست (واستشهد طياروها) عندما حلّقت عن إهمال فوق قاعدة رامات دافيد الجوية قرب حيفا، والتي كانت ما زالت محتلة من جانب سلاح الجو الملكي بعد انتهاء المعاهدة. وقد افترض خالدي (op. cit., p. 868) أن طائرتين فقط أُسقطتا فعلاً، وأن الاثنتين الأُخريين تضررتا.

(28) مستعمرة نجْبا كانت تحت قيادة لواء غِفعاتي.

(29) كان تقاطع الطرق هذا حيوياً للتحرك الجانبي من الغرب إلى الشرق على امتداد الطريق من أسدود إلى الخليل، ومن الشمال إلى الجنوب (أي من وسط فلسطين إلى النقب).

(30) حاملات مدافع برن (Bren) هي عربات خفيفة رقيقة التصفيح على الجوانب، بينما سقوفها غير مصفحة، وكان أعلاها المكشوف هو مكمن ضعفها.

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx